التعرف على القرآن

الشهيد مرتضى المطهري

هذا الكتاب

نشر إليكترونياً وأخرج فنّياً برعاية وإشراف

شبكة الإمامين الحسنين عليهما السلام للتراث والفكر الإسلامي

بانتظار أن يوفقنا الله تعالى لتصحيح نصه وتقديمه بصورة أفضل في فرصة أخرى قريبة إنشاء الله تعالى.

الفصل الأوّل

* ضرورة معرفة القرآن.

* أقسام معرفة القرآن.

أوّلاً : المعرفة الإسناديّة أو الانتسابيّة.

ثانياً : المعرفة التحليليّة.

ثالثاً : المعرفة الجذريّة.

* أصالة ثلاثيّات المعرفة في القرآن.

* شروط التعرّف على القرآن.

* هل يمكن معرفة القرآن ؟

ضرورة معرفة القرآن

معرفة القرآن لكلّ شخص بعنوان أنّه إنسان عالم ، ولكلّ مؤمن على أساس أنّه فرد مؤمن ، أمر واجب وضروري.

أمّا بالنسبة للعالم الخبير بشؤون الناس والمجتمع ، فمعرفة القرآن ضروريّة ؛ لأنّ هذا الكتاب عامل مؤثّر في تكوين مصير المجتمعات الإسلاميّة ، بل وفي تكوين المجتمعات البشريّة.

نظرة إلى التاريخ توضّح لنا هذه النقطة ، وهي أنّه لا يوجد كتاب في التأريخ أثر كالقرآن في حياة الإنسان ، وفي تكوين المجتمعات البشريّة وأمّا :

- في أيّ اتجاه كان هذا التأثير ؟

- وهل حوّل مسيرة التأريخ إلى جهة السعادة ورفاهيّة البشريّة ، أمْ إلى جهة الانحطاط والنقص؟

- وهل كان بسبب تأثير هذا القرآن ، أن وجدت حركة وثورة في التأريخ ، وجرى دم جديد في عروق المجتمعات البشريّة ، أَمْ بالعكس ؟

إنّه موضوع خارج عن نطاق بحثنا هذا.

ولهذا الغرض ، فإنّ القرآن يدخل ضمن مبحث علم الاجتماع ، وضمن المواضيع التي يهتمّ بها هذا العلم.

ومعنى كلامنا: أنّ البحث والتحقيق حول تأريخ العالم خلال (١٤ قرناً) بصورة عامّة ، ومعرفة المجتمعات الإسلاميّة بصورة خاصّة ، بدون معرفة القرآن ، أمر محال.

وأمّا ضرورة معرفة القرآن لكلّ مسلم مؤمن؛ فإنّها تأتي لكون القرآن المنبع الأصلي والأساسي للدين والإيمان وتفكّر كل مسلم ، ولأنّه (القرآن) يَهَبُ الحياة حرارةً وروحاً وحرمةً ومعنىً.

القرآن مثل بعض الكتب الدينيّة التي تعرض مجموعة من المسائل الغامضة حول الله والخِلْقة والكون ، أو تعرض - على الأكثر - مجموعة من النصائح الخُلُقيّة العاديّة ولا غير؛ حتّى يضطرّ المؤمنون إلى أخذ أفكارهم ومعتقداتهم ومفاهيم حياتهم من منابع أخرى.

القرآن عَرَضَ ووضّح أصول العقائد والأفكار التي يحتاج إليها الإنسان ، على أساس أنّه موجود مؤمن وصاحب عقيدة.

وهكذا بيّن القرآن الأصول التربويّة والخلقيّة والأنظمة الاجتماعيّة والروابط الأُسَرِيَّة ، إلاّ أنّه يبقى التفصيل والتفسير ، وأحيانا الاجتهاد ، وتطبيق الأصول على الفروع ، فذلك موكول إلى السُنّة أو الاجتهاد (استنباط الأحكام).

ولذا تتوقّف الاستفادة من أيّ منبع آخر على معرفة القرآن مقدّماً.القرآن مقياس ومعيار للمنابع الأخرى ، وعلينا أنْ نطبّق الحديث والسُنّة مع المعايير القرآنيّة ، فلو تطابقتْ معها قبلناها ، ولو لم تطابقها رفضناها.

وأمّا أكثر المنابع اعتباراً وتقديساً عندنا بعد القرآن ، هي:

- الكتب الأربعة في الحديث : (الكافي ، مَن لا يحضره الفقيه ، التهذيب ، والاستبصار).
- وفي الخطب : نهج البلاغة.
- وفي الأدعية : الصحيفة السجّاديّة.

وكلّ هذه المنابع متفرّعة من القرآن ، ولا نقطع بها كما نقطع

بالقرآن ، أي إنّ حديث الكافي : نستطيع أنْ نأخذ به ونستدلّ عليه عندما نطبّقه مع القرآن ، ولا بدّ أنْ يتطابق معه ومع تعاليمه ولا يختلف معه شيئاً.

كان الرسول الأعظم والأئمّة الأطهار عليهم السلام يقولون - بما معناه - :

اعرضوا أحاديثنا على القرآن ، فإنْ لم تنطبق معه فأعلموا أنّها مزوّرة مجعولة ، نحن لا نقول خلافاً للقرآن.

أقسام معرفة القرآن

الآن ، و بعد أنْ علمنا ضرورة معرفة القرآن ، لا بدّ أنْ نرى ما هي طريقة معرفة هذا الكتاب؟ لمطالعة وفَهْم أي كتاب بصورة عامّة ، هناك ثلاثة أقسام للمعرفة لا بدّ منها :

أوّلاً: المعرفة الإسناديّة أو الانتسابيّة:

في هذه المرحلة نريد أنْ نعرف مدى ضرورة انتساب الكتاب إلى كاتبه ، لنفرض مثلاً : أنّنا نريد أنْ نعرف ديوان (حافظ) أو (خيّام) ، في المقدّمة لا بدّ

من معرفة أنّ ما اشتهر من ديوان حافظ له كلّه ، أَمْ أنّ بعض الكتاب له والباقي يُنسَب إليه ، وهكذا بالنسبة إلى خيّام أو غيرهما.هنا لا بدّ من الاستعانة بنسخ الكتاب أقدمها وأكثرها اعتبارا.ونلاحظ أنّ جميع الكتب لا تستغني عن هذا النوع من المعرفة. ديوان (**حافظ**) الذي طبعه المرحوم القزويني واستفاد فيه من أكثر النسخ اعتباراً ، يختلف اختلافاً كبيراً مع النسخة الموجودة في كثير من البيوت والمطبوعة في (**بمبئي**).

وعندما تُلقي نظرة إلى (**رباعيّات الخيام**) ، ربّما ترى (**٢٠٠ رباعيّة**) في منزلة واحدة ومستوى واحد تقريباً ، وإذا كان فيها أي اختلاف فإنّه كاختلاف أشعار كل شاعر.مع العلم بأنّنا لو رجعنا تاريخيّاً إلى الوراء واقتربنا من عصر الخيّام ، لرأينا أنّ المنسوب إليه - قطعاً - يقلّ عن (**٢٠ رباعيّة**) ، والباقي يُشكّ في صحّة انتسابه إليه ، أو أنّه من نَظْم شعراء آخرين دون ترديد.

وعلى هذا فإنّ أولى مراحل معرفة الكتاب هي أنْ نرى مدى اعتبار إسناد الكتاب الذي بين يدينا إلى مؤلّفة.

وهل يصحّ إسناد كل الكتاب أو بعضه إليه ؟ وفي هذه

الحالة كم في المئة من الكتاب نستطيع تأييد إسناده إلى المؤلّف ؟ وعلاوة على ذلك ، بأيّ دليل نستطيع أنْ ننفي بعضاً ونُؤيّد بعضاً ونشكّ في البعض الآخر ؟

القرآن مستغنٍ عن هذا النوع من المعرفة ، ولهذا فإنّه يعتبر الكتاب الوحيد (**الذي يصح إسناده**) منذ القدم ، ولا يمكننا الحصول على أيّ كتاب قديم قد مضى عليه قروناً من الزمان وبقي إلى هذا الحدّ صحيحاً معتبراً دون شبهة.وأمّا الموضوعات التي تطرح أحياناً ، ومن قبيل المناقشة في بعض السور أو بعض الآيات ، فإنّها موضوعات خاطئة ولا داعي لعرضها في الدراسات القرآنيّة ، القرآن تقدّم على علـ-م معرفة النسخ ، ولا يوجد أدنى ترديد في أنّ الذي جاء بهذه الآيات من الله عزّ وجل هو محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم .

جاء بها عنواناً للإعجاز ؛ لأنّها كلام الله ، ولا يقدر أحد أنْ يدّعي أو يحتمل وجود نسخة أخرى غير هذا القرآن ، ولا يوجد في العالم مستشرق واحد ، يبدأ - في بحثه عن القرآن - بالتحقيق حول نسخ القرآن القديمة ، (فلا توجد هناك نسخ متعدّدة من القرآن) ، وبالرغم من

أنّ هذه الحاجة - حاجة ملاحظة النسخ القديمة - موجودة لدى التحقيق في: التوراة ، والإنجيل ، والشاهنامه (للفردوسي) ، وديوان سعدي ، وأي كتاب آخر ، فإنّ القرآن لا يُقال بحقّه مثل ذلك.

والسرّ في هذا الأمر - كما تقدّم - هو تقدّم القرآن على علم معرفة النسخ.والقرآن علاوة على أنّه كتاب سماوي مقدّس وأتباعه ينظرون إليه بهذه العين ، فإنّه أصدق دليل على صدق ادّعاء الرسول ، ويعتبر أكبر معجزاته.

وإضافة إلى ذلك ، فإنّ القرآن ليس مثل التوراة التي نزلتْ مرّة واحدة ، حتّى يصح هذا الإشكال : ما هي النسخة الأصليّة ؟ بل وإنّ آيات القرآن نزلتْ بالتدرّج وطوال ثلاث وعشرين سنة.

ومن اليوم الأوّل لنزول القرآن ، تنافس المسلمون على تعلّمه وحفظه وفَهْمه ، كما يتهالك الظمآن على شرب الماء ، وخصوصاً فإنّ المجتمع الإسلامي وقتئذٍ كان مجتمعاً بسيطاً ، ولم يكن هناك كتاب لا بدّ للمسلمين من

حِفْظه وفَهْمه إلى جنْب القرآن.

خلوّ الذهن ، فراغ الفكر ، قوّة الذاكرة وعدم الإلمام بالقراءة والكتابة ، كلّها كانت الدافع إلى أنْ تُرَكِّز المعلومات السمعيّة والبصريّة - لدى الإنسان المسلم - وفي ذاكرته - تركيزاً قويّاً ، ولأجل ذلك ، فإنّ موافقة بيان القرآن مع عواطفهم وأحاسيسهم أدّى إلى تركيزه في قلوبهم كما يرتكّز الرسم المحفور في الصخر.

كانوا يقدّسونه باعتباره كلام الله لا كلام البشر ، ولا يسمحون لأنفسهم أنْ يغيّروا كلمة واحدة ، بل حرفاً واحدا فيه ، أو أنْ يقدّموا أو يؤخّروا حرفاً ، وكان كل همّهم أنْ يقتربوا من الله بتلاوة هذه الآيات (تلاوة صحيحة).

علاوة على كلّ هذا ، فإنّ ذكر هذه النقطة ضروريّة ، وهي أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم منذ الأيّام الأولى ، انتخب عدداً من خواصّ الكتاب ، ويُعْرَفون باسم **(كُتّاب الوحي)** ، وتُحسب هذه ميزة للقرآن ، إذ إنّ الكتب القديمة لم تكن كذلك ، كتابة كلام الله منذ البداية تعتبر عاملاً قطعيّاً لحفظ القرآن وصَونه من التحريف.

وهناك سبب آخر لحسن تقبّل القرآن لدى الناس ، وهو الناحية الأدبيّة والفنِّيّة للقرآن ، والتي يُعبَّر عنها بالفصاحة والبلاغة ، الجاذبيّة الأدبيّة الشديدة للقرآن ، كانت تدعو الناس بالتوجّه إليه ، والاستفادة منه بسرعة ، وذلك خلافاً للكتب الأدبيّة الأخرى ، التي يتصرّف فيها روّاد الأدب كيفما يشاؤون ، ليكملوها حسب تصوّرهم.

وأمّا القرّاء، فلا يُجيز أحد لنفسه التصرّف فيه ؛ لأنّ هذه الآية :

(وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ) (سورة الحاقّة ، الآية : ٤٤ - ٤٦) ، وآيات أُخرى توضّح مدى عقوبة الكذب على الله ، وعندما تتمركز هذه الآيات في مخيّلته ينصرف عن هذا الأمر.

وبهذا الترتيب ، قبل أنْ يرى التحريف له طريقاً إلى هذا الكتاب السماوي ، تواترتْ آياته ووصلتْ إلى مرحلة لا يمكن إنكار أو تحريف حرف واحد منه ؛ ولذا ، لا يلزمنا البحث في هذه الناحية من القرآن ، كما أنّ كلّ عارف للقرآن في العالَم لا يرى لنفسه ضرورة البحث في هذا المجال.

هنا لا بدّ أنْ نتذكّر نقطة واحدة ، وهي أنّه بسبب سعة نطاق الحكومة الإسلاميّة ، واهتمام الناس الشديد بالقرآن ، وبواسطة بُعْد عامّة المسلمين عن المدينة المنوّرة التي كانت مركز الصحابة وحفّاظ القرآن ، فإنّ احتمال خطر بروز تغييرات مُتعمَّدة أو غير مقصودة في نسخ القرآن كان أمراً وارداً ، خاصّة بالنسبة إلى المناطق النائية على الأقل.

إلاّ أنّ فطانة ودقّة مراقبة المسلمين مَنَعَتا حدوث هذا الأمر.فالمسلمون منذ أواسط القرن الأوّل للهجرة احتملوا هذا الخطر ؛ ولذلك استفادوا من وجود الصحابة وحفّاظ القرآن ، ولتجنّب أيّ خطأ أو اشتباه - عمداً كان أو سهواً في المناطق البعيدة - فإنّهم استنسخوا نُسَخَاً مصدّقة - من قِبل الصحابة الكبار وحفّاظ القرآن - من القرآن ، ووُزِّعتْ هذه النسخ من المدينة إلى الأطراف ، ولذلك قطعوا الطريق إلى الأبد من ظهور مثل هذه الاشتباهات أو الانحرافات ، وخصوصاً من قِبل اليهود الذين يُعتبرون أبطالاً في فنّ التحريف.

ثانياً : المعرفة التحليليّة:

*** هذه المرحلة تعني بتحقيق تحليلي حول الكتاب ، أي :**

- توضيح أنّ هذا الكتاب يشتمل على أيّة مواضيع ؟
- وما هو الهدف الذي وضع له ؟
- ما رأيه حول الإنسان ؟
- ما هي نظرته إلى المجتمع ؟
- وكيفيّة عرضه للمواضيع وطريقة مقابلته للمسائل المختلفة ؟
- هل له نظرة فلسفيّة ، أو - باصطلاح اليوم - علميّة ؟
- هل ينظر إلى القضايا من زاوية عين رجل عارف ، أَمْ إنّ له أسلوباً خاصّاً به ؟
- وسؤال آخر أيضاً في هذا المجال : هل لهذا الكتاب رسالة ونداء إلى الإنسانيّة ؟
- وإذا كان الجواب بالإيجاب فما هي هذه الرسالة ؟

* إنّ المجموعة الأولى لهذه الأسئلة ترتبط - في الحقيقة - بنظرة الكتاب إلى العالَم والإنسان والحياة والموت و....، أو بعبارة أكمل ، ترتبط بمعرفة الكتاب ، وفي اصطلاح فلاسفتنا ترتبط بفلسفة الكتاب النظريّة.

* وأمّا المجموعة الثانية من الأسئلة فتختصّ بأطروحة الكتاب بالنسبة لمستقبل الإنسان ، كيف يريد أنْ يبني

المجتمع البشري ، ومَن هو الإنسان النموذجي في نظره ؟

وعلى أيّ حال ، فإنّ هذا النوع من المعرفة يرتبط بمحتوى الكتاب ، ونستطيع أنْ نبحث من هذه الزاوية أيّ كتاب ، إنْ كان كتاب (الشفاء) لابن سينا أو ديوان (سعدي).من الممكن أنْ نرى كتاباً ليس له نظرة ولا رسالة ، أو أنّ له نظرة بدون رسالة ، أو أنّه يحتوي على الاثنتين.

*** وبالنسبة للمعرفة التحليليّة للقرآن ، لا بدّ أنْ نرى :**

- ما هي المواضيع التي يشتمل عليها القرآن ؟
- وكيف يعرض القرآن هذه المسائل ؟
- وما هي استدلالات واحتجاجات القرآن في المستويات المختلفة ؟
- بما أنّ القرآن حافظ وحارس للإيمان ورسالته إيمانية ، فهل ينظر إلى العقل نظرة ترقّب وترصّد ، ويسعى ليصدّ هجوم العقل ويكبّل يديه ورجلَيه ، أَمْ بالعكس ، ينظر إليه دائماً نظرة مساندة وحماية (ويستعين به) ويستنجد مِن قوّته ؟

هذه الأسئلة ومئات الأسئلة المشابهة التي تطرح ضمن المعرفة التحليليّة ، توضّح لنا وتعرّفنا ماهيّة القرآن.

ثالثاً : المعرفة الجذريّة :

في هذه المرحلة ، وبعد معرفة صحّة استناد وانتساب الكتاب إلى مؤلّفه ، وبعد تحليل وتحقيق محتويات الكتاب بدقّة ، يجب أنْ نحقّق فيما إذا كانت مواضيع ومحتويات الكتاب نابعة من أفكار الكاتب ، أَمْ إنّ المؤلّف استدان واقتبس من أفكار الآخرين.

مثلاً ، بالنسبة لديوان حافظ :

بعد أنْ اجتزنا مرحلتَي المعرفة الإسناديّة والمعرفة التحليليّة ، يجب أنْ نعرف هذا الأمر : هل هذه الأفكار والمواضيع التي أوردها في الكلمات والجمل والأبيات وأخرجها بأسلوبه الخاص ، هل هي من إبداعاته ، أَمْ إنّ صياغة الكلمات بهذا الفن والجمال من الشاعر ، وأنّ الأفكار من آخر أو من آخرين.وبعبارة أخرى بما أنّ العلم بالأصالة الفنّيّة لدى حافظ يجب أنْ نتيقّن بالأصالة الفكريّة له أيضاً.

هذا النوع من المعرفة بالنسبة لحافظ أو أيّ مؤلّف آخر ، معرفة تنبع من جذور أفكار المؤلّف ، وهذا المعرفة فرع للمعرفة التحليليّة.أي إنّ يجب معرفة محتوى أفكار

المؤلّف بدقّة أوّلاً ، ثمّ نبدأ بالمعرفة الجذريّة.وخلافات لهذا الأمر ، فإنّ النتيجة تشبه مؤلّفات بعض كُتّاب تأريخ العلوم الذين لم يفقهوا شيئاً من العلوم ، غير أنّهم يكتبون في تأريخ العلوم.أو نستطيع أنْ نُمثّل أيضاً بأولئك الذين يكتبون الكتب الفلسفيّة ويريدون أنْ يبحثوا - مثلاً - حول ابن سينا وأرسطو ، ووجوه التشابه والاختلاف بينهما ، ولكنّهم لم يعرفوا مع الأسف ابن سينا ولا أرسطو.

هؤلاء مع مقايسة بسيطة ، وفور تعلُّمهم بعض المشابهات اللفظيّة يجلسون على منصّة القضاء ، مع أنّ في المقايسة يجب أنْ يدرك عمق الأفكار ، ولمعرفة عمق أفكار كبار المفكّرين - أمثال ابن سينا وأرسطو - يلزمنا عمراً كاملاً من الزمان ، وإلاّ فما نحصل عليه ليس سوى كلمات تخمينيّة أو تقليديّة.

في التحقيق حول القرآن ومعرفته ، بعد إجراء المطالعة التحليلية حول القرآن ، يأتي دور المقايسة والمعرفة التأريخيّة ، أي إنّنا يجب أنْ نقارن القرآن وما يحتويه بالكتب الأخرى الموجودة في ذلك العصر ، وخصوصاً الكتب الدينيّة ، ويلزمنا في هذه المقارنة

ملاحظة جميع الشروط والإمكانات (الخاصّة بذلك العصر).

مثل :

- مدى علاقة شبة الجزيرة العربيّة بسائر البلدان.
- وعدد المتعلّمين الذين كانوا يعيشون في مكّة وقتئذٍ و.....
- ثمّ نستنتج أنّ ما في القرآن هل يوجد في الكتب الأخرى أَمْ لا ؟ وإنْ كان يوجد فبأيّة نسبة؟
- وتلك المواضيع التي تشبه بقيّة الكتب هل هي مستقلّة أَمْ مقتبسة ؟
- وما هو دور هذه المواضيع في تصحيح أخطاء تلك الكتب وتوضيح انحرافاتها ؟

أصالة ثلاثيّات المعرفة في القرآن

بمطالعة القرآن نعرف أصالة المعرفة بأقسامها الثلاثة في القرآن :

* الأصالة الأولى هي أصالة الانتساب :

أي إنّه بدون أيّ شكٍّ وبدون الحاجة إلى البحث والتفتيش حول النسخ القديمة ، فإنّنا نعرف بوضوح : أنّ ما يُتْلَى هذا اليوم باسم القرآن الكريم ، فهو نفس الكتاب الذي أتى به محمّد بن

عبد الله ﷺ من عند الله ، وعرضه على العالَم.

* الأصالة الثانية ، أصالة المواضيع :

أي إنّ معلومات ومعارف القرآن إبداعيّة مبتكَرة ، وليست الْتقاطيّة ولا مقتبسة.والتحقيق حول هذا الأمر من واجبات المعرفة التحليليّة.

* الأصالة الثالثة هي أصالة القرآن الإلهيّة :

أي إنّ هذه المعلومات أُلقيتْ على الرسول الأعظم من أُفُق أعلى ، من أُفُق أفكار الرسول ، وإنّما كان الرسول مُتلقِّياً من الوحي وحاملاً لهذه الرسالة.وهذه النتيجة نحصل عليها من المعرفة الجذريّة للقرآن.

وهذه المعرفة الجذريّة ، وبعبارة أخرى تعيين أصالة العلوم القرآنيّة مبتنية على المعرفة من القسم الثاني.ولذلك ، فإنّنا نبدأ البحث من المعرفة التحليلية ، أي نحقق في هذا الأمر :

- ما هي محتويات القرآن ؟
- وما هي المواضيع المعروضة في القرآن ؟
- وفي أي المواضيع أظهر القرآن اهتمامنا أكثر ؟
- وكيف عرضتْ تلك المواضيع ؟

إذا استطعنا - في المعرفة التحليلية - أنْ نؤدّي حقّ الموضوع ، وإذا فهمناه فهماً جيّداً ، وعرفنا معارف القرآن معرفة كافية ، عندئذٍ - وكما قلنا - نصل إلى هذه الأصالة التي هي أساس أصالات القرآن ، وهي الأصالة الإلهيّة ، أي كون القرآن معجزة.

شروط التعرّف على القرآن

تحتاج معرفة القرآن إلى مقدّمات وشروط نذكرها بإيجاز :

* أحد الشروط الضروريّة لمعرفة القرآن : معرفة اللغة العربيّة :

وكما لا يمكن معرفة (أشعار) حافظ وسعدي ، دون الإلمام بالفارسيّة ، فإنّ معرفة القرآن المكتوب باللغة العربيّة دون معرفة اللغة العربيّة أمر محال.

* الشرط الآخر : هو الإلمام بتاريخ الإسلام :

لأنّ القرآن ليس مثل التوراة أو الإنجيل ، إذْ عُرض كلٌّ منهما (وبلغ إلى الناس) مرّة واحدة من قِبل الرسول (موسى وعيسى)، بل إنّ هذا الكتاب نزل طوال (٢٣ سنة) من حياة الرسول الأعظم ، من البعثة حتّى الوفاة ، وخلال

الأوضاع المختلفة لتأريخ الإسلام المملوءة حركةً وثورةً ؛ ولهذا نلاحظ هناك أسباب لنزول آيات القرآن ، وسبب النزول لا يحدّد معنى الآية ، بل - وبالعكس - فإنّ معرفة سبب النزول يُرْشِد ويؤثّر كثيراً في توضيح مضمون الآيات.

* الشرط الثالث :

هو الإلمام بكلمات وأقوال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، فالرسول بنص القرآن ، أوّل مفسّر لهذا الكتاب ، حيث جاء في القرآن :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّـرُونَ) (سورة النحل : آية : ٤٤).

(هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُـو عَلَـيْهِمْ آيَاتِـهِ وَيُـزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَةَ) (سورة الجمعة : آية : ٢).

الرسول الأكرم صلى الله عليه **وسلم** - مِن نظر القرآن - بنفسه مبيّن ومفسّر لهذا الكتاب ، وما جاءنا من الرسول يعيننا على تفسير القرآن.

أمّا بالنسبة إلينا - نحن الشيعة - الذي نعتقد بالرسول والأئمّة الأطهار عليهم السلام ، ونعتقد أنّ ما كان للرسول من قبل الله فقد نقله إلى أوصيائه المكرمين، فإنّ الأحاديث المعتبرة التي وصلتْنا من الأئمّة ، لها نفس اعتبار الأحاديث المعتبرة ، الواصلة من رسول الله ، فإنّ الروايات الموثّقة من الأئمّة ، تساعدنا كثيراً في معرفة القرآن.

هناك نقطة لا بدّ أنْ نهتمّ بها في التحقيق حول القرآن ، وهي أنْ نتعرّف على القرآن بالاستعانة بالقرآن نفسه ، وهي أنْ نتعرّف القرآن بالاستعانة بالقرآن نفسه.والغرض من ذلك أنّ مجموعة آيات القرآن تكوّن مع بعضها بناءً متراصّاً، أي إنّنا إذا أخذنا آية واحدة من آيات القرآن، وقلنا إنّنا نريد فهْم هذه الآية فقط ، يعتبر هذا أسلوب خاطئ ، وبالطبع يُحتمل أنْ يكون فهمنا لتلك الآية فهْماً صحيحاً، ولكنّ هذا عمل مخالف للاحتياط ، فآيات القرآن تفسّر بعضها بعضاً، وكما قال بعض المفسّرين الكبار ، فإنّ الأئمّة الأطهار أيّدوا هذا الأسلوب من التفسير.

القرآن له أسلوب خاص بنفسه في توضيح وبيان المسائل ، ففي موارد كثيرة إذا أخذتَ آيةً واحدة من

القرآن، دون عرضها على الآيات المشابهة ، فإنّها تأخذ مفهوماً يختلف كلِّيّاً عن مفهوم نفس الآية، إذا وضعت بجانب الآيات التي تشابهها في المضمون.

لعرض نموذج من هذا الأسلوب الخاص للقرآن ، نستطيع ذكر الآيات المحكمة والآيات المتشابهة.

هناك تصوّر ساذج بالنسبة للمحكمات والمتشابهات ، فيعتقد البعض بأنّ الآيات المحكمة : هي التي عرضت فيها المواضيع بصورة عاديّة وصريحة ، والآيات المتشابهة بعكس ذلك ، فإنّ الموضوعات فيها على صورة ألغاز ورموز.

وبمقتضى هذا التعريف يحق للناس أنْ يتدبّروا في الآيات المحكمة والصريحة فقط ، وأمّا الآيات المتشابهة فلا يمكن معرفتها، ويُمنع التفكّر فيها.

وهنا بالطبع يطرح هذا السؤال نفسه : ما هي إذن فلسفة الآيات المتشابهة ؟ لماذا يعرض القرآن آيات غير قابلة للمعرفة ؟ الجواب بالإيجاز هو أنّ الآيات المحكمة ليس معناها الآيات الصريحة والواضحة ، وليست الألغاز

والرموز معاني للمتشابهات.

اللغز لفظ مبهم ، لا يُفهم معناه مباشرة ، والآن لننظر هل توجد في القرآن آيات مبهمة ؟

هذا القول ينافي نصّ القرآن الذي يقول بأنّ القرآن كتاب مبين في آياته ، وأنّ آياته واضحة مفهومة ، وجاءت لتكون نوراً وهدى للناس.

إلاّ أنّ سرّ الموضوع يكمن في بعض المواضيع المعروضة في القرآن ، خاصة عندما يأتي الكلام عن ما وراء الطبيعة والأمور الغيبيّة فإنّها غير قابلة للبيان والتوضيح أساساً مع الألفاظ.

ولكن بما أنّ لغة القرآن هي اللغة المتداولة بين البشر ، فإنّ هذه المواضيع المعنويّة اللطيفة وردت بنفس العبارات والألفاظ التي يستخدمها البشر في الموضوعات المادِّيَّة.ولكن لتجنّب سوء الفهم فإنّ المسائل الواردة في بعض الآيات لا بدّ أنْ تسرِ بمعونة الآيات الأخرى ، ولا يوجد سبيل آخر غير هذا السبيل.

فمثلاً يريد القرآن أنْ يذكر حقيقة ادّعاء رؤية الله بالقلب (أي الإنسان يستطيع أنْ يرى الله بقلبه) ، ورد

هذا المعنى في قالب العبارات : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَـاظِرَةٌ) (سورة القيامة : آية : ٢٢ - ٢٣).

استخدم القرآن لفظة (النظر) ؛ لأنّه لا توجد كلمة أنسب من هذه الكلمة لأداء الغرض المقصود ، ولتجنّب الاشتباه يوضّح في مكـان آخر : (لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) (سورة الأنعام آية : ١٠٣).

يلاحظ القارئ أنّه بالرغم من التشابه اللفظي ، لا يوجد تشابه بين هذه الأمور ، ويختلف كلٌّ عن الآخر اختلافاً كاملاً.والقرآن - لتجنّب الخطأ بين المعاني العالية والمعاني المادِّيَّة - يأمرنا بإرجاع المتشابهات إلى المحكمات.

(... أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...) (سورة آل عمران : آية : ٧).

بعض الآيات محكمة ، أي إنّ لها ذلك

الاستحكام الذي لا يمكن فصلها عن معانيها ، واتخاذ معانٍ أخرى لها.هذه الآيات هي أمّ الكتاب ، أي إنّها الآيات الأم.

فكما أنّ الطفل يرجع إلى أمّه ، وأمّه تكون مرجعاً له ، وأنّ المدن الكبيرة (أُمّ القرى) تكون مرجعاً للمدن الأصغر ، فالآيات المحكمة أيضاً تحسب مرجعاً للآيات المتشابهة.

الآيات المتشابهة للتدبّر والتفكّر ، ولكن لا بدّ من الاستعانة بالآيات المحكمة لكي نتدبّر فيها.وبدون الاستعانة بالآيات الأم ، فإنّ ما يُستنتج من الآيات المتشابهة غير صحيح وليس له اعتباره.

هل يمكن معرفة القرآن

إنّ أوّل سؤال يطرح نفسه لدى التحقيق في موضوعات القرآن هو :

- هل يمكن - أصلاً - معرفة القرآن ؟
- وهل هناك إمكانيّة التحقيق في القرآن ؟
- وهل يمكن التفكّر والتدبّر في مواضيع ومسائل القرآن ؟ أَمْ أَنّ هذا الكتاب لم

يُعرض أساساً للمعرفة ؟ بل فقط للتلاوة ، والقراءة ، والتبرّك ، والتيمّن ، وأخذ الثواب ؟

يمكن أنْ يخطر على البال أنّ هذا السؤال ليس له وجه ؛ لأنّه لا يشكّ أحد أنّ القرآن كتاب للمعرفة ، ولكن لظهور قضايا خاطئة في مسألة معرفة القرآن بعلل مختلفة في العالم الإسلامي ، وكان لها تأثير فعّال في انحطاط وتدهور المسلمين ولا زالت - مع الأسف - جذور تلك الأفكار المنحطّة الخطرة موجودة في مجتمعاتنا ، لذلك يلزمنا أنْ نوضّح قليلاً هذا الموضوع :

ظهر بين علماء الشيعة قبل ثلاثة أو أربعة قرون أشخاص يعتقدون بعدم حجّيَّة القرآن ، ولم يعترفوا في ثلاثة من المصادر الأربعة للفقه ، والتي ارتضى بها علماء المسلمين ، بمثابة معايير لمعرفة المسائل الإسلاميّة ، وهي القرآن والسنّة والعقل والإجماع.

كانوا يدعون : إنّ الإجماع من بنات علماء المذاهب الأخرى ولا يمكن اتّباعه ، والعقل لا يجوز الاعتماد عليه لكثرة أخطائه ، وأمّا بالنسبة للقرآن فكانوا

يعتقدون بأنّه أكبر من أنّ نستطيع نحن البشر أنْ نطالعه ونتأمّل فيه ولا يحقّ إلاّ للنبي والأئمّة من التعمّق في آيات القرآن ونحن لا يحقّ لنا غير تلاوة الآيات ، وهؤلاء هم الإخباريّون.

الأخباريّون لا يجوّزون إلاّ مراجعة الأخبار والأحاديث. ربّما تعجّبْتم إذا علمتم أنّ بعض التفاسير التي كُتبت من قِبل هؤلاء ، إذا رأوا حديثاً في ذيل آية ذكروها ، وإنْ لم يجدوا حديثاً امتنعوا حتّى من ذكر الآية ، وكأنّ تلك الآية ليست في القرآن.

هذا العمل كان نوعاً من الظلم والعدوان تجاه القرآن.وطبيعي أنّ مجتمعاً يطّرد بهذا الشكل كتابه السماوي - وأيّ كتاب كالقرآن - ، ويسلمه بيد النسيان، لا يمكن أنْ يتحرّك أبداً في مسير القرآن.

وكان هناك فِرَق أخرى غير الأخباريّين يمتنّعون من وضع القرآن في متناول أيدي العامّة (من الناس) ، نستطيع أنْ نذكر من هذه الفِرَق : الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بأنّ معرفة القرآن لا تعني التدبّر في آيات القرآن ،

بل معناها فهم المعاني اللفظيّة للآيات ، أي إنّ ما عرفناه من ظاهر الآيات نقبلها ولا يهمّنا من واقعها شيئاً.

وطبيعي أنّ هذا الأسلوب من المعاملة مع القرآن سريعاً ما يدعو إلى الضلال والانحراف ؛ لأنّه لا مفرّ من توضيح معاني الآيات ، ولكن لأنّهم عطّلوا العقل ، فلا بدّ أنْ يحصلوا على نتائج ساذجة من القرآن.

وبدليل هذا النوع من التفكير ، انحرفوا عن طريق الإدراك الصحيح ، واعتقدوا اعتقادات باطلة من قبيل التجسّم ، أي إنّ الله جسم ، مئات من العقائد الانحرافيّة الأخرى مثل قولهم بإمكانيّة رؤية الله بالعين والتحدّث مع الله بواسطة اللسان العضوي و.....

وفي مقابل الفِرق التي تركت القرآن من الأساس ، ظهرتْ فرقة أخرى جعلوا القرآن وسيلة للوصول إلى أغراضهم وأهدافهم الشخصيّة.وكلّما كانت تقتضي مصالحهم قاموا بتأويل القرآن ونسبوا إليه أموراً لا ترتبط أساساً بروح القرآن ، وعند مواجهتهم أيّ اعتراض كانوا يجيبون أنّهم دون غيرهم يعرفون بواطن الآيات ، وأنّ

المعاني المستخرجة حصلوا عليها من معرفة بواطن الآيات.

وإنّ أبطال هذه الحركة في تاريخ الإسلام فرقتان :

أولاها الإسماعيليّة : ويُقال لهم الباطنيّة.

وثانيتها المتصوفة الإسماعيليّة : يسكنون الهند ويسكن بعضهم في إيران.وقد نجحوا في استلام الحكم، وهي الحكومة الفاطميّة في مصر.

يُعرف الإسماعيليّون بأنّهم من الشيعة ، ويعتقدون بستّة من الأئمّة ، ولكن أجمع علماء الشيعة الاثنا عشريّة أنّ هؤلاء بعيدون عن التشيّع كل البُعد ، حتّى أهل السنّة الذين لا يعتقدون بأئمّة الشيعة كما تعتقد الشيعة ، أقرب إلى التشيّع من هؤلاء الشيعة المعتقدين بستّة من الأئمّة (اشترك جماعة - بالنيابة عن الإسماعيليّين - في مجمع التقريب بين المذاهب الإسلاميّة الذي تأسّس قبل ٣٥ سنة تقريباً، واجتمعتْ فيه جميع الفِرق الإسلامية ، وهناك اتّفق علماء الشيعة والسنّة أنّ الإسماعيليّين ليسوا من الفِرق الإسلاميّة ، ولم يسمحوا لهم بالاشتراك في ذلك المجمع).

ارتكب الإسماعيليّون بواسطة اعتقادهم بالباطنيّة خيانات كثيرة في تاريخ الإسلام ، وكان لهم دور كبير في إيجاد الانحراف في الأمور الإسلاميّة.

وإذا انصرفنا عن الإسماعيليّة ، فهناك المتصوّفة الذين لهم دور كبير في مسألة تحريف الآيات وتأويلها طبقاً لعقائدهم الشخصيّة ، أذكر هنا مثالاً واحداً لتفاسيرهم ، حتّى تتّضح طريقتهم في التحريف ، ولْيقرأ القارئ حديثاً مفصّلاً من هذا المجمل.

عندما ورد ذكر إبراهيم عليه‌السلام وابنه إسماعيل عليه‌السلام في القرآن ، يحكي القرآن أنّ إبراهيم كان يُؤمَر في المنام - عدّة مرّات - بذبح ابنه في سبيل الله.يتعجّب إبراهيم في البداية من هذا الأمر ، ولكن بعد تكرّر الرؤيا يتيقّن ويسلّم أمره إلى الله ، ثمّ يُخبر ابنه عن هذا الموضوع ، ويَقبل ابنه بكلّ إخلاص ويستسلم لحكم الله ، قال تعالى :

(قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (سورة الصافات : الآية : ١٠٢) ، والغرض هو إظهار التسليم والرضا بقضاء الله.

ولذلك فعندما يستعدّ الأب والابن بكلّ إخلاص لتنفيذ أمر الله تبارك وتعالى ، يتوقّف تنفيذ الحكم بإذن الله.

وفي تفسير هذه الحادثة يقول المتصوّفة : إنّ المقصود من إبراهيم هو العقل ، والمقصود من إسماعيل هو النفس ، والعقل - هنا - كان يريد أنْ يذبح النفس **!!**

وواضح أنّ هذا النوع من التفسير لا يكون لعباً بالقرآن ، وإظهار نوع من المعرفة الانحرافيّة.وبالنسبة لهذه التفاسير المنحرفة والمبتنية على الأميال والأهواء النفسيّة والحزبيّة ، يقول الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم : (مَن فسّر القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار).

وهذا النوع من التفسير (المتقدّم) يعتبر اتّخاذ القرآن لعباً ، وأنّه خيانة كبرى.

(لقد كثرت في عصرنا الحاضر - وللأسف - التفاسير الانحرافيّة والالتقاطيّة ، وقد أخذتْ الأفكار الإلحاديّة صبغة إسلاميّة أحياناً.وقد بدأ أستاذنا الشهيد حركة واسعة النطاق لمواجهة مثل هذه الحركات الانحرافيّة، وناضل بفكره ويراعه ما استطاع ، حتّى أنّه استشهد في هذا السبيل).

اتّخذ القرآن أسلوباً وسطاً في مقابل الجمود والتفكّر

الجاف للأخباريّين ونظرائهم ، وكذلك في مقابل الانحرافات والتفاسير الخاطئة للباطنيّة وغيرهم ، وهذا الأسلوب (الوسط) عبارة عن التأمّل والتدبّر المنصف والبعيد عن الأغراض والأهواء.

القرآن يدعو المؤمنين ، بل وحتّى المخالفين بالتفكير في آياته ، ويدعوهم بأنْ يتأمّلوا في آياته بدلاً عن صدّها وإنكارها.

يقول في خطاب مع المخالفين : (أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمّد : آية : ٢٤).

يقول في آية أخرى : (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (سورة ص : آية : ٢٩).أنه كتاب مبارك مثمر أرسلناه إليك ، لماذا ؟ لم نرسله ليقبلوه ويضعوه فوق الرفوف ، بل أرسلناه ليفكّروا ويتدبّروا في آياته.

هذه الآيات وعشرات الآيات الأخرى التي تؤكّد على تدبّر القرآن ، تجوّز وتؤيّد تفسير القرآن، ولكنْ ليس

تفسيراً على الهوى والميل النفسي ، بل على أساس الصدق والإنصاف ، بعيداً عن الأغراض الشخصيّة.عندما تتأمّل في القرآن بإنصاف وبدون غرض ، فلا ضرورة لنا في إمكانيّة معرفة كلّ مسائلة.

القرآن من هذه الجهة يشبه الطبيعة.فكم من أسرار في الطبيعة لم تنكشف بعد ، وليس هناك أمل في اكتشافها في الأوضاع الحاليّة ، ولكنّها سوف تُكشف في المستقبل.

وإضافة على ذلك ، بالنسبة إلى معرفة طبيعة الإنسان ، لا بدّ من مطابقة التفكّر مع الطبيعة كيفما كانت.

القرآن أيضاً كتاب مثل الطبيعة لم ينزل لزمن واحد ، وإذا كان غير ذلك فقد كانوا يكتشفون غوامضها جميعاً في الماضي ، وكان هذا الكتاب السماوي يفقد جاذبيّته وطراوته وتأثيره.

إنّ الاستعداد للتدبّر والتفكّر وكشف غوامض القرآن موجود دائماً ، وهذه نقطة وضّحها النبي والأئمّة

عليهم السلام ، في حديث منقول عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يقول فيه - ما معناه - : **مَثَل القرآن مثل الشمس والقمر** ، **يتحرّك مثلهما باستمرار** ، أي إنّه ليس ثابتاً ولا يبقى في مكان واحد ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم أيضاً : (القرآن ظاهرة أنيق وباطنه عميق) (هذه الجملة جاءتْ ضمن حديث طويل للرسول الأعظم - ص - في فضل القرآن ، الكافي : ج٤ ، ص ٣٩٩).

في عيون أخبار الرضا ، نُقل من قول الإمام الرضا عليه السلام ، أنّه سُئل الإمام الصادق عليه السلام : ما هو السرّ في بقاء القرآن على طراوته كلّما يُتلى أكثر ، وكلّما يمضي عليه الزمان زمناً أطول ؟

فأجاب الإمام : (لأنّ الله لم ينزلْه لزمان دون زمان ، ولا لناسٍ دون ناس).

لقد أوجده الله ليسبق الأفكار والأزمنة في أيّ زمان ، مع وجود الاختلافات الكثيرة في المعلومات وأنواع التفكّر ومدى اتّساع الفكر ، مع أنّه يحوي مجهولات لقُرّائه في كلّ زمان ، ولكنّه يعرض مقداراً كبيراً من المعاني والمفاهيم القابلة للإدراك ، بحيث يُشبع حاجة الزمان.

الفصل الثاني

* المعرفة التحليليّة للقرآن.
* كيف يعرّف القرآن نفسه ؟
* التعرّف على لغة القرآن.
* المخاطَبون في القرآن.

المعرفة التحليليّة للقرآن

في هذا الفصل نريد البحث في مضامين القرآن ، وفي الحقيقة لو أردنا التعرّض لمواضيع القرآن واحداً واحداً لكلّفنا أطناناً من الورق.لذلك نعرض الكلّيّات في البداية ثمّ نذكر بعض الجزئيّات.

لقد بحث القرآن مسائل كثيرة ، وتعرّض لبعضها بشيء من التفصيل ، وبحث البعض الآخر بحثاً بإيجاز.

ومن المسائل التي وردتْ في القرآن : مسألة العالَم وخالق العالَم.

* يجب أنْ نلاحظ تعريف القرآن لذات الله :

هل أنّه تعريف فلسفي أو عرفاني ؟

هل جاء هذا التعريف كما ورد في سائر الكتب الدينيّة مثل التوراة والإنجيل ، أو أنّه يشبه ما في المبادئ الهنديّة ؟

أو أنّ للقرآن أساساً ، أسلوب خاص وطريقة مستقلّة في معرفة الله ؟

* الموضوع الآخر والمعروض في القرآن هو موضوع العالَم.يجب أنْ نلاحظ نظرة القرآن حول العالم :

هل يرى العالَم والخِلْقَة عبثاً ولعباً ، أو أنّه يرى العالم طبق نظام صحيح ؟

هل يرى العالَم على أساس مجموعة من السنن والقواعد ، أو يحسبه عبثاً ودون قواعد ، وكأنّه لا يوجب أي شيء شرطاً لشيء آخر ؟

* ومن المسائل العامّة الواردة في القرآن ، مسألة الإنسان ، يجب علينا أنْ نحلّل رأي القرآن بالنسبة للإنسان :

هل يتحدّث القرآن عن الإنسان مع حسن نيّة ، أو أنّ له نظرة سيّئة تجاه الإنسان ؟

هل يحقّر الإنسان ، أو يعتبر أنّ له عِزّة وكرامة ؟

* المسألة الأخرى هي مسألة المجتمع البشري :

هل يرى القرآن للمجتمع الإنساني أصالة وشخصيّة ، أو أنّه يعد للفرد أصالة فقط ؟

هل للمجتمع في نظر القرآن حياة وموت وارتقاء وانحطاط ، أو أنّ هذه الصفات تعتبر صادقة بالنسبة للفرد فقط ؟

* وبهذه المناسبة ، يأتي الحديث عن التأريخ :

فما هو رأي القرآن بالنسبة إلى التاريخ ؟

وما هي القوى

المحرّكة للتأريخ ؟

وإلى أيّ حد يؤثّر الفرد في إيجاد التاريخ ؟

* وهناك مواضيع كثيرة جدّاً وردتْ في القرآن ، نُشير إلى بعض منها بإيجاز ، من ضمن هذه المواضيع :

نظرة القرآن حول نفسه.

ثمّ موضوع النبي في القرآن ، وأنّ القرآن كيف يعرّف النبي ، وكيف يتحدّث معه و....

الموضوع الآخر هو : وصف المؤمنين في القرآن وصفات المؤمنين وغير ذلك.

* وبالطبع ، فإنّ لكلّ هذه البحوث الكلّيّة شعب وفروع (مختلفة) ، فمثلاً :

عندما نبحث حول الإنسان ، لا بدّ أنْ نبحث عن أخلاقه أيضاً.

وعندما نبحث عن المجتمع ، فيلزمنا التحدّث عن روابط الأفراد فيه.

وموضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وموضوع الفوارق الاجتماعيّة.

كيف يعرّف القرآن نفسه ؟

عندما نبحث عمّا يشتمل عليه القرآن ، من الأحسن أنْ نرى رأي القرآن عن نفسه وكيف يعرّف نفسه ؟

* إنّ أوّل

* نقطة يُصرّح بها القرآن - لدى التعريف عن نفسه - :

أنّ هذه الكلمات والجُمَل هي كلام الله ، ويُصرّح القرآن أنّه ليس من تعبير وإنشاء النبي ، بل إنّ النبي يبيّن - بإذن من الله - ما يُلقى عليه بواسطة روح القدس جبرائيل.

* والتوضيح الآخر الذي يعرضه القرآن في تعريف نفسه :

هو توضيح رسالته التي هي عبارة عن هداية أبناء البشر ، وإرشادهم للخروج من الظلمات إلى النور ، (... كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...) (سورة إبراهيم : آية : ١).

ولا شكّ أنّ الجهل والمجهولات من مصاديق هذه الظلمات ، وأنّ القرآن يُخرج البشر من هذه الظلمات ، ويدخلهم إلى أنوار العلم.

ولكن إذا كانت هذه الظلمات تنحصر في المجهولات ، فكان الفلاسفة أيضاً يتمكّنون من إجراء هذه المهمّة ، إلاّ أنّ هناك ظلمات أخرى أخطر كثيراً من ظلمات الجهل ، ولا يتمكّن العلم من مقاومتها.

ومن هذه الظلمات : حبّ المصلحة الشخصيّة ، وحبّ الذات وهو النفس ، و... التي تعتبر ظلمات فرديّة وخُلُقيّة.

وتوجد ظلمات اجتماعيّة ، مثل : الظلم والتفرقة وغيرهما.

إنّ لفظة (الظلم) مأخوذة من مادة (الظلمة) وتبيّن نوعاً من الظلمة المعنوية والاجتماعيّة ، وإنّ القرآن وسائر الكتب السماوية تتعهّد بالنضال من أجل رفع الظلمات ، يقول القرآن مخاطباً موسى بن عمران عليه‌السلام : (... أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ...) (سورة إبراهيم : آية : ٥)

هذه الظلمة هي ظلمة ظلم فرعون والفراعنة ، والنور هو نور الحرِّيّة والعدالة ، وإنّ النقطة التي لاحظها المفسّرون هي أنّ القرآن يذكر الظلمات دائماً بصيغة الجمع ، ومع الألف واللام ؛ لكي تفيد الاستغراق وتشمل جميع أنواع الظلمات ، في الوقت الذي يذكر النور بصيغة الإفراد ويعني : إنّ الصراط المستقيم طريق واحد لا غير.

إلاّ أنّ طرق الضلال والانحراف متعدّدة ، نقرأ في آية الكرسي مثلاً :

(... اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

وبهذا الترتيب يُبيّن القرآن هدفه وهو : تحطيم قيود الجهل والضلال والظلم ، والفساد الخلقي والاجتماعي ، وفي كلمة واحدة : القضاء على الظلمات ، والهداية نحو العدل والخير والنور.

التعرّف على لغة القرآن

الموضوع الآخر هو التعرّف على لغة القرآن وتلاوته.

يتصوّر البعض أنّ الغرض من تلاوة القرآن ينحصر في قراءة القرآن لأجل الثواب ، دون أنْ يدرك شيئاً من معانيه.وهؤلاء يقرؤون القرآن باستمرار ، ولكن إذا سُئلوا مرّة واحدة : إنّكم هل تعرفون معنى ما تقرؤون ؟ يعجزون عن الإجابة.

إنّ قراءة القرآن من هذه الناحية - وهي أنّها مقدّمة لإدراك معاني القرآن - ضروريّة وحسنة ، ولكن ليس فقط لأجل اكتساب الثواب.

وهناك أيضا خصائص لإدراك معاني القرآن لا بدّ من ملاحظتها.إنّ ما يلزم حصوله للقارئ - وهو يريد الاستفادة من كثير من الكتب - هو مجموعة الأفكار الجديدة التي ليس لها وجود قبل ذلك في الذهن.وإنّ الذي يعمل ويتحرّك هنا هو العقل وقوّة التفكير لدى القارئ ليس غير.

وبالنسبة للقرآن ، فلا ريب بضرورة مطالعته بهدف دراسته وتعلّمه ، يُصرّح القرآن في هذا المجال بقوله :

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ) (سورة ص : آية : ٢٩).

إحدى مسؤوليّات القرآن هي التعليم والتذكير ، ومن هذه الجهة يخاطِب القرآن عَقْلَ الإنسان ويتحدّث معه بالاستدلال والمنطق ، غير أنّ للقرآن لغة أخرى ، والمخاطب فيها ليس العقل ، بل المخاطب هو القلب ، وهذه اللغة الثانية تُسمّى : (**الإحساس**).

وإنّ الذي يريد أنْ يتعرّف على القرآن ويأنس به ،

عليه أنْ يتعرّف على هاتَين اللغتَين ويستفيد منهما معاً ، وأنّ تفكيك هاتَين اللغتَين يؤدِّي إلى بروز الخطأ والاشتباه ، ويسبّب الضرر والخسران.

إنّ ما نُسمّيه بالقلب : هو عبارة عن شعور عظيم وعميق جدّاً في باطن الإنسان ، ويسمّونه أحياناً (**إحساس الوجود**) ، أي إحساس رابطة الإنسان مع الوجود المطلق.

فالذي يعرف لغة القلب ويخاطب الإنسان بها ، يُحرّك الإنسان من أعماق وجوده ، وعندئذٍ لا يبقى الفكر الإنساني تحت التأثير فحسب ، بل ويتأثّر كلّ وجوده.

وربّما استطعنا أنْ نضرب الموسيقى مثلاً كنموذج عن لغة الإحساس ، فإنّ الأقسام المختلفة للموسيقى تشترك في جهة واحدة ، وهي علامتها مع الإحساسات الإنسانيّة.تُهيّج الموسيقى روح الإنسان وتغرقها في عالم خاص من الإحساس ، وبالطبع ، فإنّ ضروب الهيجانات والأحاسيس تختلف مع اختلاف أنواع الموسيقى ، فربّما ارتبط أحد أنواع الموسيقى مع الشعور بالفتوّة والشجاعة ، فيتحدّث بهذه اللغة مع الإنسان.

لقد رأيتم الأناشيد والمعزوفات العسكريّة ، تُنْشَد وتُعْزَف في ميادين القتال ، ونرى أحياناً مدى تأثير هذه الأناشيد وقوّتها ، بحيث تجعل الجندي الذي لا يخرج من خندقه خوفَ الأعداء تجعله يتقدّم إلى الأمام بكلّ اندفاع ، ويحارب الأعداء رغم الهجوم الثقيل للعدو.

وهناك نوع آخر من الموسيقى يرتبط مع الشهوة و (الشعور الجنسي) ، فيعرّض الإنسان إلى الخمول والانقياد نحو الشهوات ، ويدعوه ليستسلم للفساد.

وقد لوحظ أنّ تأثير الموسيقى كبير في هذا المجال ، وربّما لم يستطع أيّ شيء آخر أنْ يؤثر إلى هذا الحد في القضاء على جدران العفّة والأخلاق ، وبالنسبة إلى سائر الغرائز و الأحاسيس أيضاً، عندما يُقال شيء بلسان هذه الأحاسيس - بواسطة لغة الموسيقى أو بأيّ وسيلة أخرى - فإنّه يمكن أنْ يُوضع تحت المراقبة والنَظَارة.

إنّ الشعور الديني والفطرة الإلهيّة من أسمى الغرائز والأحاسيس لدى كلّ إنسان ، وإنّ علاقة القرآن مع هذا

الإحساس الشريف علاقة أسمى وأعلى (١) (لقد بُحث كثيراً حول هذا الشعور الديني في شرق العالم وغربه.وننقل هنا باختصار أقوال بعض العلماء المعروفين في العالم ، والحديث الأوّل لاينشتاين أنّه يتحدّث عن الدين في إحدى مقالاته ويقول : بأنّه يعتقد بأنّ العقيدة والمذهب بصورة عامّة ثلاثة أنواع :

- **مذهب الأخلاق :** وهو الدين الذي يبتني على المصالح الخُلُقيّة.

- **ثمّ يذكر مذهباً آخر ويسمّيه مذهب الوجود :** وهذا التعبير هو ما نطلق عليه (القلب).

ويعتقد اينشتاين :

أنّ هذا المذهب - في الحقيقة - يريد أنْ يقول بأنّه تحصل - في فترةٍ ما - حالةٌ معنويّة وروحيّة للإنسان حيث يخرج فجأة - في تلك الحالة - من هذه النفس المحدودة والمحاطة بالآمال والأُمنيات الحقيرة ، والمفصولة عن الآخرين ، وهكذا عن عالم الوجود الطبيعي الذي أصبح حصاراً له ، ويتحرّر من هذا السجن ، وعند ذلك يجلس ليراقب كلّ الوجود فيجد الوجود كحقيقة واحدة ، ويرى بوضوح تلك العظمة والشموخ والجلالة لما وراء هذا الموجودات ، ويتذكّر حقارة نفسه ، وعندئذٍ يريد أنْ يرتبط بكلّ الوجود.

إنّ تعبير اينشتاين هذا يذكّرنا بقصّة همّام عندما سأل أمير المؤمنين عليه السلام عن صفات المؤمن ، فأجابه الإمام جواباً موجزاً جامعاً ،

حيث قال :(يا همّام اتّقِ الله وأحسن ، إنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون) ، ولكنّ همّام لم يقتنع بهذا الجواب ، ويطلب توضيحاً أكثر عن كيفية المعاشرة وطريقة العبادة في الصباح والمساء ، و... ، عندئذٍ يبدأ الإمام علي عليه السلام بذكر صفات المؤمن ويرسم حوالي ١٣٠ خطّاً من خطوط المتّقين ، ويقول ضمن ذلك :

(لولا الآجال التي كتب الله تعالى لهم ، لم تستقرّ أرواحهم في أبدانهم طرفة عين).

هذه هي نفس الحالة التي يشير إليها اينشتاين ، ويقول : إنّ الإنسان المتديّن يرى نفسه مسجوناً فيما يشبه السجن ، وكأنّه يريد أنْ يطير من قفص البدن ويحصل على كلّ الوجود مرّة واحدة.وقد جاءت هذه الحقيقة في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام بصورة أوضح وأكمل ، فمِن وجهة نظر الإمام عليه السلام نرى المؤمن كأنّه جمع كلّ الوجود في بدنه المادّي ، وعلى هذا الأساس يخرّ من قالبه مرّة واحدة ليحرّر روحه.وقد ذكروا في قصّة همّام هذه النقطة وهي أنّه عندما أتمّ الإمام كلامه ، شهق همّام شهقة وخرج من قالبه (المادّي).

وبمناسبة الشعور المعنوي للبشر ، هناك حديث لطيف إلى (إقبال) يقول فيه :

لا يوجد في هذا القول لغز ولا سر ، وهو إنّ الدعاء بمثابة وسيلة إشراقيّة نفسيّة ، عمل حيوي عادي ، بواسطته تُكتشف الجزيرة الصغيرة لشخصيّة مكانها في قطعة أكبر من العالم.

القرآن بنفسه يوصينا أنْ نقرأه بصوت حسن لطيف.

وبهذا النداء السماوي يتحدّث القرآن مع الفطرة الإلهيّة للإنسان ويسخّرها ، (كان الأئمّة - ع - يقرؤون القرآن بتلك اللهفة التي ما أنْ يسمعهم المارّة حتّى يضطرّون إلى الوقوف ، والاستماع والتأثير والبكاء).

القرآن عندما يصف نفسه يتحدّث

بلسانين :

فتارةً : يعرّف نفسه بأنّه كتاب التفكّر والمنطق والاستدلال.

وتارةً : أخرى بأنّه كتاب الإحساس والعشق.وبعبارة أخرى فالقرآن ليس - إذاً - للعقل والفكر فحسب ، بل هو غذاء للروح أيضاً.

يؤكّد القرآن كثيراً على الموسيقى الخاصّة به ، الموسيقى التي لها تأثير أكثر من كلّ موسيقى أخرى ، في إثارة الأحاسيس العميقة والمتعالية للإنسان.

يأمر القرآن المؤمنين بأنْ يقضوا بعض أوقات الليل بتلاوة القرآن ، وأنْ يُرَتّلوا القرآن في صلواتهم عندما يتوجّهون إلى الله ، وفي خطابٍ للرسول يقول :

(يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً) (سورة المزمل : آية : ١ - ٣).

*** الترتيل :**

الترتيل : قراءة القرآن بحيث تخرج الكلمات من الفم بسهولة واستقامة (مفردات الراغب) يعني : قراءة القرآن ، بحيث لا تكون سرعة خروج الكلمات كبيرة ، فلا تُفهم الكلمات ، ولا

تكون متقطّعة فتنفصم علاقاتها ، يقول : قراءة القرآن بتأنٍّ في الوقت الذي تلاحظ محتوى الآيات بدقّة.

وفي الآية الأخيرة لتلك السورة يدعونا أنْ لا ننسى العبادة في حال من الأحوال اليوميّة ، وحتّى في الأوقات التي نحتاج لنوم أكثر ، مثل أوقات الجهاد أو الأعمال التجاريّة اليوميّة : قال تعالى :

(... عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً...) (سورة المزمل : آية : ٢٠).

الشيء الوحيد الذي كان سبباً للنشاط واكتساب القوّة الروحيّة والحصول على الخلوص وصفاء الباطن بين المسلمين ، هو موسيقى القرآن.

فالنداء السماوي للقرآن أوجد في مدّة قصيرة من المتوحّشين (الجاهلين) ، في شبه الجزيرة العربيّة شعباً مؤمناً مستقيماً ، استطاعوا أنْ يحاربوا أكبر القوى الموجودة في ذلك العصر ويقضوا عليها.

فالمسلمون لم يتّخذوا القرآن كتاب درس وتعليم فحسب ، بل كانوا ينظرون إليه بمثابة غذاء للروح ومنبع لاكتساب القوّة وازدياد الإيمان.فكانوا يقرؤون القرآن بكل إخلاص في الليل (يشير الإمام السجاد عليه السلام إلى هذه النقطة بقوله في دعاء ختم القرآن : (واجعل القرآن لنا في ظلم الليالي مؤنساً) ، ويناجون ربّهم تضرّعاً وخفية ، وفي الصباح يهاجمون الأعداء كالأسود البواسل ، والقرآن ينتظر مثل ذلك منهم ، يقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

(فَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) (سورة الفرقان : آية : ٥٢).

قف في وجوههم وجاهدهم بسلاح القرآن واطمئن بالنصر.وقصّة حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم توضّح صدْق هذه الحقيقة ، إنّه يقوم وحيداً ودون أي ناصر ، في حين يحمل القرآن في يده ، ولكنّ هذا القرآن يصبح كلّ شيء له ، يجهّز له الجيوش ، ويَعدّ له الأسلحة والتجهيزات الحربيّة ، وأخيرا فإنّه يدعو العدوّ إلى الاستسلام والخضوع أمامه.

يدعو الأعداء ليستسلموا أمام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وبهذا يصادق على الوعد الإلهي (وفي زماننا أيضاً ، تحقّق هذا الوعد الإلهي الحقّ مرّة أخرى ، وجاء رجل من سلالة رسول الله - الإمام الخميني - مستنداً إلى القرآن والأيمان كجدِّه العظيم ، وهزم جيش الكفر والباطل أكبر هزيمة)

عندما يعتبر القرآنُ لغتَه لغة القلب ، فإنّ غرضاً من هذا القلب هو الذي ينسجم مع آيات الله ويتصفا ويثور.تختلف أيضاً عن لغة الأنغام والأناشيد العسكريّة ، التي تُعزف في الجيش لتحيِّي فيهم الحماسة البطوليّة.إنّها تلك اللغة التي تصنع من البدويّين العرب مجاهدين قيل في حقِّهم :

(حملوا بصائرهم على أسيافهم) أولئك الذين وضعوا أفكارهم النَيِّرة ومعارفهم ومعنويّاتهم على سيوفهم ، ويستخدمون سيوفهم في طريق هذه الأفكار والعقائد.

إنّهم لم يهتمّوا بمصالحهم الشخصيّة وأمورهم الفرديّة.وبالرغم من أنّهم لم يكونوا معصومين ، بل

ويخطئون أيضاً ، إلاّ أنّهم المصاديق الحقيقيّة للقائمين في الليل ، والصائمين في النهار (قائم الليل وصائم النهار) ، كانوا في علاقة مستمرّة مع أعماق الوجود ، تقضي لياليهم في العبادة وأيّامهم في الجهاد (يصف أمير المؤمنين - ع - المتّقين في خطبة تُعرف باسم المتّقين (خطبة ١٩٣ من نهج البلاغة) ، وبعد أنْ يذكر أقوالهم ومعاملاتهم ، يشرح أحوالهم في الليل ويقول :

(أمّا الليل فصافّون أقدامهم تالِين لأجزاء القرآن ، يرتّلونها ترتيلاً ، يُحزِنون به أنفسهم ، ويستشرون به دواء دائهم ، فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طعماً ، وتطلّعتْ نفوسهم إليها شوقاً ، وظنّوا أنّها نُصْب أعينهم ، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنّوا أنّ زفير جهنّم وشهيقها في أصول آذانهم...).

يؤكّد القرآن كثيراً على هذه النقطة التي تعتبر من خصائصه ، وهي أنّه كتاب القلب والروح ، كتاب يُثير النفوس ويسيل الدموع ويهزّ القلوب ، ويعتبر القرآنُ هذه الميزة صادقة حتّى بالنسبة لأهل الكتاب.

يصف مجموعة منهم بأنّهم إذا تُلي عليهم القرآن تحصل لهم حالة خضوع وخشوع ، ويقولون أنّهم آمنوا بما في الكتاب ، وأنّه حقٌّ كلّه ، يقولون ذلك وتزداد حالتهم خشوعاً باستمرار.

ويؤكّد في آية أخرى أنّ المسيحيّين من أهل الكتاب ، أقرب إلى المسلمين من اليهود والمشركين، كما في تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...) (سورة المائدة : آية : ٨٢).

ثمّ يصِف القرآن جماعة من المسيحيّين الذين آمنوا بعد أنْ سمعوا القرآن بقوله :

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (سورة المائدة : آية : ٨٣).

وفي مكان آخر ، وعندما يتحدّث عن المؤمنين ، يقول في وصْفهم :

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ...) (س--ورة الزمر : آية : ٢٣).

في هذه الآيات وفي آيات أخرى كثيرة :

(... إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً) (سورة مريم : آية : ٥٨) ، والآيات الأولى من سورة الصف ، يوضّح

القرآن أنّه ليس كتاباً علميّاً وتحليليّاً محضاً ، بل إنّه في الوقت الذي يستخدم الاستدلال المنطقي ، يتحدّث مع إحساس الإنسان وذوقه ولطائف روحه ويؤثّر عليه.

المخاطبون في القرآن

من النقاط الأخرى التي لا بدّ أنْ تُسْتَنْبَط من القرآن ، في البحث حول المعرفة التحليليّة للقرآن ، هي تعيين المخاطَبين في القرآن.

وردتْ كثيراً في القرآن تعابير مثل : (... هُدًى لِلْمُتَّقِينَ) ، (هُدىً وَبُشْرَى لِلْمُـؤْمِنِينَ) و (لِيُنْذِرَ مَـنْ كَانَ حَيّـاً...) ، هنا يمكن طرح هذا الإشكال ، وهو أنّ الهداية لا تلزم للمتّقين ؛ لأنّهم أنفسهم متّقون.

ومن جانب آخر نرى القرآن هكذا يُعرّف نفسه :

(إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (سورة ص : آية : ٨٧) ، (وهذه الآية من الآيات العجيبة في القرآن ، عندما نزلت الآية كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مكّة ، وكان يتحدّث مع أهالي إحدى القرى ، كان عجيباً للناس أنْ يروا رجلاً وحيداً يقول بكلّ طمأنته إنّكم سوف تسمعون نبأ هذه الآية فيها بعد ، سوف تسمعون قريباً ماذا يصنع هذا الكتاب مع العالَم خلال فترة قصيرة).

وفي آية أخرى يخاطب الله رسولَه قائلاً :

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (سورة الأنبياء : آية : ١٠٧).

وسوف نذكر شرحاً مفصّلاً عن هذا الموضوع في مبحث : التأريخ في القرآن.إلاّ أنّه لا بدّ من القول هنا بإيجاز :

في الآيات التي يخاطب القرآن جميع أبناء العالم ، يريد - في الواقع - أنْ يقول : بأنّ القرآن لا يختصّ بقوم وجماعة خاصّة ، كل مَن يتوجّه نحو القرآن يحصل على النجاة.

وأمّا في الآيات التي يتحدّث فيها عن أنّه كتاب هداية للمؤمنين والمتّقين ، يريد أنْ يوضّح هذه النقطة ، وهي أنّه مَن الذي يسير نحو القرآن في النهاية ؟ ومَن هم الذين يبتعدون عنه ؟

لا يذكر القرآن عن شعب خاص وقبيلة معيّنة ، على أساس أنّهم هم المعتقدون به والتابعون له، ولا يقول إنّ القرآن يُعتبر كتاب شعب خاص.

القرآن - خلافاً لسائر المبادئ - لم يهتم بمصالح طبقة خاصّة ، ولم يقل - مثلاً - : إنّه جاء لتأمين مصالح طبقة ما ، ولم يقل - أيضاً - : إنّ هدفه الوحيد هو مساندة العمّال أو الدفاع عن حقوق الفلاّحين.

يؤكّد القرآن عندما يتحدّث عن نفسه : أنّه كتاب لبسْط العدالة ، يقول عن الأنبياء :

(... وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ...) (سورة الحديد : آية : ٢٥).

يريد القرآن القسط والعدل لكلّ المجتمع البشري ، وليس لقوم أو طبقة أو قبيلة خاصّة.ولكي يجذب الناس إلى نفسه لم يشر إلى العصبيّات القومية مثل النازيّة.

وخلافاً لمبادئ أخرى كالماركسية مثلاً ، لا يستند على مصالحهم ومنافعهم الشخصيّة ، ليثيرهم عن هذا الطريق ؛ لأنّه في هذه الحالة لا يستهدف العدل والحق لاتّباعه ، بل يستهدف وصوله إلى منافعهم وطلباتهم الشخصيّة.

وكما أنّ القرآن يعتقد بأصالة الوجدان العقلي للإنسان ، فإنّه يعتقد له أيضاً أصالة وجدانيّة وفطريّة ، وعلى أساس فطرة طلب الحقّ والعدل يدعوهم إلى الحركة والثورة ؛ ولهذا فإنّ رسالته لا تنحصر بطبقة العمّال أو الفلاحين أو المحرومين أو المستضعفين.

يخاطِب القرآن الظالمين والمظلومين بأنْ يتّبعوا الحق ، يبلّغ موسى عليه‌السلام رسالتَه إلى بني إسرائيل ، وإلى فرعون أيضاً ، ويدعوهم جميعاً إلى الإيمان بالله والسير في رسالته.

ودعوته لرؤساء قريش ، في الوقت تكون إثارة الأفراد ضدّ أنفسهم ، ورجوعهم عن مسيرة الضلال ، وهي أنّ رجوع وإنابة المترَفين والمتنعِّمين أصعب بكثير من رجوع المحرومين والمظلومين.

الفريق الثاني يتحرّكون في مسير العدالة باقتضاء طباعهم.وأمّا الفريق الأوّل فعليه أنْ يمتنع عن مصالحه

الشخصيّة والاجتماعيّة ، ويدوس برجليه على ميوله وأهوائه.

يقول القرآن : بأنّ أتباعه هم الذين طَهُرَتْ نفوسُهم وزَكَتْ أرواحُهم ، وهؤلاء اتبعوا القرآن على أساس مطالبة الحق والعدل ، التي هي في فطرة كلّ إنسان ، ولم يتّبعوا ما تقتضيه مصالحهم وميولهم المادِّيَّة والزخارف الدنيويّة.

الفصل الثالث

* فطرة القرآن عن العقل.
* دلائل حجِّيَّة العقل.
* الدعوة إلى التعقّل من قِبل القرآن.
* الاستفادة من نظام العلّة والمعلول.
* فلسفة الأحكام.
* النضال مع انحرافات العقل.
* مواطن الخطأ من وِجهة نظر القرآن.
* نظرة القرآن عن القلب.
* تعريف القلب.
* خصائص القلب.

فطرة القرآن عن العقل

ذكرنا في الفصل السابق موجَزاً عن أَلْسِنَة القرآن ، وذكرنا أنّ القرآن استعان بلسانَين لإبلاغ رسالته وهما :

الاستدلال المنطقي ، والإحساس.ولكلّ هذين اللسانَين مخاطب خاص به ، فمخاطب الأوّل العقل ، ومخاطب الثاني القلب.

وفي هذا الفصل نريد أنْ نبحث عن وجهة نظر القرآن حول العقل.

يجب أنْ نرى أنّ العقل سند من وجهة نظر القرآن أمْ لا ؟ وبتعبير علماء الفقه والأصول هل العقل حجّة أَمْ لا ؟ وهذا يعني أنّه إذا حصلنا على حكم واقعي صحيح من العقل ، هل يجب على البشر أنْ تحترم هذا الحكم ويعمل وفقاً له أم لا ؟ وإذا عمل بناء عليه ، وارتكب الخطأ في بعض الموارد ، هل يعذره الله ، أم يعاقبه عليه ؟

ولو لم يعمل هل يجازيه الله على أساس أنّه لم يتبع حكم عقله ، أَمْ لا ؟

دلائل حجّيَّة العقل

إنّ موضوع حجّيَّة العقل من وجهة نظر الإسلام ثابت في مقامه ، ولم يتردّد علماء الإسلام من الابتداء إلى الآن - باستثناء قليل منهم - في سَنَدِيَّة العقل ، واعتبروه أحد المصادر الأربعة (الأصليّة) في الفقه.

١ - الدعوة إلى التعقّل من قِبل القرآن :

بما أنّنا نبحث حول القرآن ، علينا أنْ نستخرج دلائل حجِّيّة العقل من القرآن نفسه.

لقد صادق القرآن من جهات مختلفة وأكد - خاصّة على الجهات المختلفة - على حجِّيّة العقل.وقد أشير إلى مورد واحد فقط من ستّين إلى سبعين آية من القرآن إلى هذه المسألة ، وهي : إنّنا عرضنا هذا الموضوع لتعقلوا (ويتدبّروا) فيه.

* وعلى سبيل المثال أذكر نموذجاً لإحدى التعابير العجيبة للقرآن ، يقول القرآن :

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ

الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (سورة الأنفال : آية : ٢٢).

وأوضح أنّ غرض القرآن من الصمّ والبكم ليس الصمّ والبكم العضوي ، بل الغرض منهما هم الأشخاص الذين لا يريدون أنْ يستمعوا الحقيقة ، أو أنّهم يسمعونها ولا يعترفون بألسنتهم.

فالأُذن التي تعجز عن سماع الحقائق وتستعد فقط لسماع المهملات والأراجيف ، إنّ هذه الأذن صمّاء من وجهة نظر القرآن.

واللسان الذي يستخدم فقط في بثّ الأراجيف ، يعتبر لساناً أَبْكَماً حسب رأي القرآن.

(**لا يعقلون**) : هم الذين لا ينتفعون من أفكارهم ، يعتبر القرآن مثل هؤلاء الأشخاص الذين لا يحقّ أن يطلق عليهم اسم (الإنسان) بالحيوانات ، ويخاطبهم بالبهائم.

* وفي آية أخرى ، يبحث ضمن عرض مسألة

توحيديّة ، حول (التوحيد الأفعالي والتوحيد الفاعلي) ، بقوله :

(وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ...) (سورة يونس : آية : ١٠٠).

وبعد عرض هذه المسألة الغامضة التي لا يستطيع كلُّ عقل أنْ يدركها ويتحمّلها ، وأنّها تهزّ الإنسان حقيقة ، تقول الآية : (... وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ) (تتمّة نفس الآية السابقة).

في هاتَين الآيتَين اللّتين ذكرتهما بعنوان المثال ، يدعو القرآن إلى التعقّل بالدلالة المطابقيّة كما في اصطلاح المنطقيّين.

* وهناك آيات كثيرة أخرى يصادق القرآن على حجّيَّة العقل فيها بالدلالة الالتزاميّة - إذا دلّ وجود أمر على أمر آخر ، تُطلق عليه اسم الدلالة - وللدلالة أنواع :

- **الدلالة المطابقيّة :** أي أنْ يدلّ اللفظ على تمام معناه ، مثل أنْ نقول : سيّارة ، ونقصد جميع أجزائها.

- **الدلالة التضمّنيّة :** أي أنْ يدلّ اللفظ على جزء من معناه ، مثل أنْ نقول : هنا توجد السيارة ، ونفهم منها أنّ ماكنة السيّارة موجودة أيضاً.

- **الدلالة الالتزاميّة :** حيث يدلّ اللفظ فيها على موضوع غير معناه (الظاهري) مثل : أنْ نسمع اسم (حاتم) ويخطر على بالنا (الجود والسخاء).

وبعبارة أخرى : يقول أقوالاً لا يمكن أبداً قبولها ، إلاّ بعد قبول حجّيَّة العقل ، مثلاً يطلب من الخصم استدلالاً عقليّاً :

(... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ...) (سورة البقرة : آية : ١١١).

يريد أنْ يوضّح بالدلالة الالتزاميّة هذه الحقيقة ، وهي :

أنّ العقل حجّة وسند ، أو أنّه يرتّب قياساً منطقيّاً لإثبات وحدة واجب الوجود ، بقوله : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا...) (س-ورة الأنبياء : آية : ٢٢) ، هنا يُرتِّب القرآن قضيّة شرطيّة ، يستثني فيها المقدّم ولا يذكر التالي.

وقع كلّ هذا التأكيد على العقل ، يريد القرآن أنْ يبطل ادّعاء بعض الأديان التي تقول بأنّ الإيمان أجنبي عن العقل ، ولا بدّ لِمَن يريد الإيمان أنْ يعطّل فكره ويشغل قلبه فقط ؛ لكي ينفذ فيه نور الله.

٢ - الاستفادة من نظام العلّة والمعلول :

الدليل الآخر الذي يثبت أنّ القرآن يعتقد بأصالة

العقل هو أنّه يذكر المسائل في علاقاتها العلِّيَّة والمعلوليّة.إنّ علاقة العلّة والمعلول وأصل العلِّيَّة أساس للتفكّرات العقليّة ، والقرآن يحترمها ويستعملها.

وبالرغم من أنّ القرآن يتكلّم باسم الله ، والله هو الخالق لنظام العلّة والمعلول ، وبالطبع فإنّ الحديث يدور حول ما وراء الطبيعة ، ويعتبر نظام العلّة دونها ، بالرغم من كلّ ذلك لا ينسى القرآن هذا الموضوع ، وهو أنْ يذكر شيئاً عن نظام السبب والمسبَّب في العالَم ، ويعتبر الحوادث والوقائع مقهورة لهذا النظام.

وعلى سبيل المثال لا حظوا هذه الآية التي تقول :

(... إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...) (سورة الرعد : آية : ١١).يريد أنْ يقول بأنّه : لا ش--كّ أنّ كلّ المصائر بإرادة الله ، ولكنّ الله لم يفرض المصير على البشر من ما وراء اختيار البشر وإرادتهم وأعمالهم ، ولا يعمل عملاً عبثاً ، بل إنّ للمصائر نظاماً أيضاً ، وإنّ الله لا يُغيِّر مصير أيّ مجتمع عبثاً ، وبدون وجه ، إلاّ أنْ يُغيِّروا بأنفسهم

فيما يرتبط بهم ، مثل الأنظمة الأخلاقيّة والاجتماعيّة وكل ما يتعلّق بواجباتهم الفرديّة.

ومن طرف آخر يرغّب القرآنُ المسلمين بمطالعة أحوال وأخبار الأمم السالفة ؛ لكي يعتبروا منها.وطبيعي أنّه لو كانت قصص الأقوام والأمم والأنظمة على أساس عبث أو كانت مصادفة ، ولو كانت المصائر تُفرض من الأعلى إلى الأسفل ، فلم يكن هناك معنى للمطالعة وأخذ العبرة.

يريد القرآن بهذا التأكيد أنْ يذكر بأنّ هناك أنظمة موحّدة تحكم مصائر الأمم ، وبهذا الترتيب لو تشابهتْ ظروف مجتمعٍ ما مع ظروف مجتمع آخر ، فإنّ مصير ذلك المجتمع يكون في انتظار المجتمع الآخر.

يقول في آية أخرى : (فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ... *... يَسْمَعُونَ بِهَا...) (سورة الحج : آية : ٤٥ - ٤٦).

إنّ قبول الأنظمة بالدلالة الالتزاميّة ، في كلّ هذه المواضيع ، يؤيّد نظام العلّيّة وقبول العلاقة العلّيّة يعني قبول حجّيّة العقل.

٣ - فلسفة الأحكام :

من الدلائل الأخرى لحجّيّة العقل - من وجهة نظر القرآن - هو أنّ القرآن يذكر فلسفة للأحكام والقوانين ، ويعني هذا الأمر : أنّ الحكم الصادر معلول لهذه المصلحة.

يقول علماء الأصول :

بأنّ المصالح والمفاسد تقع في مجموعة علل الأحكام ، مثلاً يقول القرآن في آية : (أَقِيمُوا الصَّلاَةَ...) ، وفي آية أخرى يذكر فلسفتها : (... الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ...) (سورة العنكبوت : آية : ٤٥).

يذكر الأثر الروحي للصلاة ، وأنّها كيف ترفع الإنسان ، وبسبب هذا الاعتلاء ينزجر الإنسان وينصرف عن الفواحش والآثام.

وعندما يذكر القرآن الصوم ويأمر به ، يُتْبِع ذلك بقوله : (... كُتِـبَ عَلَـيْكُمُ الصِّـيَامُ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (سورة البقرة : آية : ١٨٣).

وهكذا في سائر الأحكام ، مثل : الزكاة ، والجهاد ، و..... ، حيث يوضّح في كلٍّ منها من الناحيتَين الفرديّة والاجتماعيّة.

وبهذا الترتيب :

فإنّ القرآن يمنح الأحكام السماويّة جانباً دنيويّاً وأرضيّاً ، بالرغم من أنّها ما ورائيّة (ما وراء الطبيعة) ، ويطلب من الإنسان أنْ يتدبّر فيها ليتّضح له واقع الأمر ، ولا يتصوّر أنّ هذه الأحكام مجرّد مجموعة من رموز تفوق فكر الإنسان.

٤ - النضال مع انحرافات العقل :

والدليل الآخر الذي يدلّ على أصالة العقل لدى القرآن - وأوضح من الدلائل السابقة - هو نضال القرآن مع أعداء العقل.

لتوضيح هذا الموضوع لا بدّ من ذكر مقدّمة :

يتعرّض فكر الإنسان وعقله إلى الخطأ في كثير من الموارد - هذا الموضوع شائع ورائج عندنا جميعاً - ولا ينحصر ذلك بالعقل ، بل إنّ الحواس والأحاسيس ترتكب الخطأ أيضاً ، فمثلاً ذكروا عشرات الأخطاء لحاسّة البصر.

وبالنسبة للعقل ، ففي كثير من الأحيان يرتب الإنسان استدلالاً ، ويحصل على نتيجة بناءً عليه ، وبعد ذلك يرى أحياناً أنّ الاستدلال كان خطأ من الأساس.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه : هل يجب تعطيل القوّة الفكريّة بسبب بعض الأعمال الخاطئة للعقل ؟

وفي جواب هذا السؤال : كان السفسطائيّون يقولون بعدم جواز الاعتماد على العقل ، وأنّ الاستدلال أساساً على عبث.

وفي هذا المجال : ردّ الفلاسفة على أهل السفسطة ردوداً قويّة ، ومن ضمنها : أنّ سائر الحواس أيضاً تُخطئ مثل العقل ، ولكنّ أحداً لم يحكم بعدم الاستفادة منها.

وبما أنّ ترك العقل غير ممكن ؛ لذلك اضطرّ المتفكّرون

أنْ يعزموا على إيجاد حل لسدّ طرق الخطأ.

وفي البحث حول هذا الموضوع لاحظوا أنّ كلّ استدلال ينقسم إلى قسمين : المادّة والصورة ، تماماً مثل بناء استُخدم فيه مواد البناء ، كالإسمنت والحديد والجص (المادّة) وأتّخذ في النهاية شكلاً خاصّاً (الصورة) ، ولكي يكون البناء محكماً جيّداً من كلّ النواحي ، لا بدّ من استخدام مواد مناسبة في بنائه ، ولا بدّ أنْ تكون خارطته صحيحة دون نقص.

وفي الاستدلال أيضاً لا بدّ أنْ تكون مادّته وصورته صحيحتَين.

وللبحث والتحقيق حول صورة الاستدلال ، وُجد المنطق الأرسطي أو المنطق الصوري.وكان واجب المنطق الصوري أنْ يعيّن صحّة أو عدم صحّة صورة الاستدلال ، وأنْ يساعد العقل ؛ كي لا يتعرّض للخطأ في صورة الاستدلال (من الأخطاء التي تعرّض لها العلم منذ عدّة قرون ، وأصبح منشأ فهم خاطئ للكثير ، هو تصوّر البعض بأنّ وظيفة منطق أرسطو هي تعيين صحّة أو عدم صحّة مادّة الاستدلال أيضاً ، وبما أنّ منطق أرسطو لم يستطع ذلك ، حكموا بعدم فائدة اللجوء إليه.ومع الأسف ، فإنّ هذا الخطأ يتكرّر كثيراً في عصرنا أيضاً ، ولا شكّ أنّ هذا الأمر دليل على أنّ هؤلاء ليس لهم معرفة صحيحة عن المنطق الأرسطي ولم يفهموه.

وإذا أردنا أنْ نستفيد من نفس مثال المبنى ، فعلينا أنْ نقول : بأنّ وظيفة منطق أرسطو في تعيين صحّة الاستدلال ، تشبه تماماً الشاقول في تعيين استقامة الجدار ، بالاستعانة بالشاقول لا يمكن معرفة مواد البناء المستخدمة في الجدران هل أنّها من نوع ممتاز أَمْ لا ؟ فمنطق أرسطو الذي تكامل أخيراً بواسطة سائر العلماء وأصبح غنيّاً جدّاً ، يحكم فقط في صورة الاستدلال ، وأمّا بالنسبة لمادّة الاستدلال ، فإنّه ساكت نَفْياً وإثْباتاً ، ولا يستطيع أنْ يقول شيئاً).

ولكنّ الأمر الهام هو :

عدم كفاية المنطق الصوري في تضمين صحّة الاستدلال ، يستطيع هذا المنطق تضمين جهة واحدة فقط ، ولحصول الاطمئنان في صحّة مادّة الاستدلال ، علينا أنْ نستخدم المنطق المادّي أيضاً.أي إنّنا نحتاج إلى معيار نقيس بمعونته كيفيّة المواد الفكريّة.

حاول علماء مثل (**بيكن**) و (**ديكارت**) أنْ يؤسِّسوا منطقاً لمادّة الاستدلال يشبه المنطق الذي وضعه أرسطو لصورة الاستدلال ، واستطاعوا أنْ يعينوا بعض المعايير في هذا المجال إلى حدٍّ ما ، لو أنّها لم تكن مثل منطق أرسطو

من الناحية الكلِّيَّة ، ولكنّها استطاعتْ أنْ تساعد الإنسان - إلى حدٍّ ما - لمنعه من الخطأ في الاستدلال ، غير إنّكم ربّما تعجَّبْتُم إذا علمتم أنّ القرآن عرض أموراً لمنع الخطأ في الاستدلال لها فضل التقدّم وتقدّم الفضل على تحقيقات أمثال (**ديكارت**).

مواطن الخطأ من وِجهة نظر القرآن

* من مواطن الخطأ التي يذكرها القرآن :

اتخاذ الإنسان الظن بدل اليقين (وهذه هي القاعدة الأولى لديكارت أيضاً.يقول : إنّه لنْ يقبل بعدئذٍ أيّ موضوع ، إلاّ أنْ يبحث ويحقّق فيه مقدّماً ، ولو وجدتُ احتمالاً واحداً للخلاف في مئة احتمال ، فلنْ أستفيد منه وأطرحه جانباً.وهذا هو المعنى الصحيح لليقين).

لو قيّد الإنسان نفسه ليتّبع اليقين في جميع المسائل ، ولنْ يقبل الظن بدل اليقين ، فلنْ يُخطئ أبد.(لا بدّ من ملاحظة : أنّه في الأمور الظنِّيَّة والاحتماليّة ، وفي الموارد التي لا يمكن الحصول على اليقين ، يجب الأخذ بنفس ذلك الظن أو الاحتمال.ولكن يجب قبول الظن والاحتمال بدل الاحتمال ، ولا يمكن الأخذ بالظن والاحتمال بدل اليقين.هذا المورد الثاني الذي يدعو إلى الخطأ).

*** لقد أكّد القرآن كثيراً حول هذا الموضوع ، وقد صرّح في إحدى الآيات أنّ أكبر خطأ للفكر البشري هو اتّباع الظن :**

وفي مقام آخر يخاطِب الرسولَ ﷺ : (وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ) (سورة الأنعام : آية : ١١٦).

ويقول في آية أخرى : (وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ...) (سورة الإسراء : آية : ٣٦).

إنّها أوّل ذكرى للبشر طوال التاريخ الفكري ، ذكرها له القرآن ونهى البشر عن مثل هذه الأخطاء.

*** الموطن الثاني للخطأ في مادّة الاستدلال - وخاصّة في المسائل الاجتماعيّة - هو مسألة التقليد :**

يعتقد كثير من الناس بالأمور التي يعتقدها المجتمع ، أي أنّ الموضوع الذي يتقبّله المجتمع ، أو تقبله الأجيالُ السالفة ، يقبلونه بدليل أنّ الأجيال السالفة قد رضيتْ وآمنت به ، (يوجد هذا الأمر في أحد أقوال (بيكن) وعندما يعرف أحد الأصنام التي يتحدّث عنها بالصنم الاجتماعي أو الصنم العُرفي ، فإنّ غرضه هذا التقليد الأعمى).

إلاّ أنّ القرآن يدعونا لكي نقيس كلّ مسألة بمعيار العقل ، لا يَعتبر بما صنعه الأجداد الأقدمون ، أو أنْ نتركها تماماً.

فكم من أمور كانت معتبرة في الماضي مع أنّها خاطئة ولكنّ الناس قبلوها ، وكم من أمور صحيحة في الأزمنة البعيدة ولكنّ الناس امتنعوا عن الاعتراف بها بسبب جَهْلهم.

في قبول هذه المسألة لا بدّ من الاستعانة بالعقل والفكر ، وعدم اتّباع التقليد الأعمى.القرآن يقابل كثيراً بين اتّباع الآباء والأجداد وبين العقل والفكر.

قال تعالى : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا... وَلاَ يَهْتَدُونَ) (سورة البقرة : آية : ١٧٠).

يؤكّد القرآن أنّ قِدَمَ فِكْرٍ ما ، ليس دليلاً على خطئه

ولا يُوجِب صحّته ، وأنّ القِدَم يجري في الأمور المادِّيَّة ، ولكنّ حقائق الوجود لنْ تُصبح قديمة متروكة مهما مضى عليها الزمان.

فحقيقة مثل : (.... إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...) تكون صادقة محكمة ثابتة طوال عمر الدنيا.

يقول القرآن : إنّه لا بدّ من مواجهة المسائل بسلاح العقل والفكر ، ويجب أنْ لا يترك الإنسان عقيدة سليمة بدليل مخالفة الآخرين له ، كما يجب أنْ لا يقبل عقيدة بمجرّد تعلّقها بهذه الشخصيّة المعروفة أو تلك الشخصيّة الكبيرة ، ولا بدّ أنْ يحقّق الإنسان بنفسه في كلّ المسائل (يجب أنْ لا يشتبه بين موضوع تقليد الآباء والأجداد ، أو الموضة العصريّة ، أو صبغة المجتمع التي نهى عنها القرآن بشدّة ، وبين موضوع تقليد المجتهد الأعلم الأعدل في الفقه ؛ لأنّه أمر واجب يبتني على رعاية التخصّص والاستفادة من العلم التخصّصي).

*** العامل الآخر الذي يؤثر في تكوّن الخطأ ويذكره**

القرآن ، هو اتّباع هوى النفس والميول النفسيّة ، يقول مولوي (الشاعر) :

(عندما جاء الغرض (هوى النفس) احتجب الفن ، وانتقلتْ مئات الحجب من القلب إلى العين).

لو لم يتخلَّ الإنسان - في أيّ أمر - من شرّ الأغراض النفسيّة ، لا يستطيع أنْ يفكّر تفكيراً سليماً ، أي : أنّ العقل يتمكّن من العمل الصحيح ، في بيئة لا توجد فيها الأهواء النفسيّة.هناك قصّة معروفة عن العلاّمة الحلّي نذكرها ، لأنّها مثال جيّد :

لقد عرض للعلاّمة الحلّي هذه المسألة الفقهيّة ، وهي أنّه لو مات حيوان في البئر وبقيتْ الميتة النجسة في البئر ، ماذا يجب العمل بماء البئر ؟ وبالصدفة سقط - في تلك الآونة - حيوان في بئر العلاّمة الحلّي ، واضطرّ ليستنبط حكماً لنفسه.كان لا بدّ له أنْ يحكم في هذا المورد عند طريقين:

الأول : أنْ يملأ البئر بالتراب ، ويستفيد من بئر آخر.

الثاني : أنْ يأخذ مقداراً معيّناً من ماء البئر ، ثمّ يستفيد من بقيّة الماء بلا إشكال.فرأى العلاّمة الحلّي أنّه لا يستطيع أنْ يحكم في هذه المسألة بلا غرض ؛ لأنّ له مصلحة في القضيّة ، ولذلك أمر أنْ يملأ البئر بالتراب أوّلاً ، ثمّ بدأ بإصدار الحكم وإظهار الفتوى ببال مريح ، وبعيداً عن ضغط الوساوس النفسيّة.

وللقرآن إشارات كثيرة في موضوع متابعة هوى النفس ، نكتفي بذكر مورد واحد ، يقول القرآن:

(إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنْفُسُ...) (النجم : آية : ٢٣).

نظرة القرآن عن القلب

أظنُّ أنّه لا داعي للتوضيح ، بأنّ الغرض من القلب في اصطلاح العرفاء والأدباء ليس ذلك العضو اللحمي الموجود في الجانب الأيسر من البدن ، ويجري الدم كالمضخّة في العروق ، فمثلاً في تعبير القرآن : (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ...) (سورة ق : آية : ٣٧).

أو في التعبير العرفاني اللطيف لحافظ (الشاعر) :

(لقد نفر قلبي ، وغافلٌ أنا المسكين ، ماذا قد حلّ بهذا الصيد التائه للحيوان).

واضح أنّ المقصود من القلب في هذين المثالَين حقيقة سامية ممتازة ، تختلف تماماً عن هذا العضو الموجود في البدن ، وهكذا عندما يذكر القرآن مرضى القلوب : (فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللّهُ مَرَضاً...) (سورة البقرة : آية : ١٠).

فإنّ معالجة هذا المرض خارجة عن طاقة طبيب أمراض القلب ، وإذا وجد طبيب يتمكّن من معالجة هذه الأمراض ، فلا شكّ أنّه طبيب متخصّص في الأمراض الروحيّة.

تعريف القلب

*** إذن ما هو المقصود من القلب ؟**

للإجابة على هذا السؤال يجب البحث في حقيقة وجود الإنسان ، فالإنسان

في الوقت الذي هو موجود واحد ، إلاّ أنّ له مئات بل وآلاف الأبعاد الوجوديّة.

(أنا) الإنسانيّة عبارة عن مجموعة كبيرة من الأفكار ، والآمال ، والخوف ، والحب ، و... ، وإنّها بمثابة الأنهار والجداول ، التي تتجمّع في مركز واحد ، وإنّ هذا المركز بنفسه بحرٌ عميق ، بحيث ما استطاع - إلى الآن - أيُّ إنسان أنْ يدعي أنّه اطّلع على أعماق هذا البحر.

فالفلاسفة والعرفاء وعلماء النفس ، ساهم كلٌّ إلى حدٍّ ما في السباحة في أغوار هذا البحر ، ووفّق كلٌّ منهم إلى كشف بعض أسراره ، ولربّما كان العرفاء أكثر حظّاً من الآخرين في هذا المجال.

وما يسمِّيه القرآن بالقلب عبارة عن حقيقة هذا البحر ، وإنّ ما نسمِّيه بالروح الظاهريّة عبارة عن الأنهار والجداول التي تتّصل بهذا البحر.وحتّى العقل بنفسه أحد هذه الأنهار التي تتّصل بهذا البحر.

عندما يذكر القرآن الوحي ، لم يقل شيئاً عن

العقل ، بل إنّ علاقته ترتبط مع قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ومعنى هذا الكلام :

أنّ القرآن لم يرد على الرسول بقوّة العقل وبالاستدلال العقلي ، بل كان هذا قلب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ، حيث ارتقى إلى حالة لا يمكن لن-ا تصوّره-ا ، وفي تلك الحالة حصل على قابليّةِ أدراك ومشاهدة تلك الحقائق المتعالية ، وها هي آيات سورة النجم وسورة التكوير توضّح كيفيّة هذا الارتباط إلى حدٍّ ما.

نقرأ في سورة النجم :

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى) : يقول القرآن ذلك ، ليبيّن أنّ مستوى هذه المسائل فوق حيّز عمل العقل الحديث هنا عن المشاهدة والاعتلاء.

ونقرأ في سورة التكوير :

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ * وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ * وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ * فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ * إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ).

خصائص القلب

يعتبر القلب من وجهة نظر القرآن وسيلة للمعرفة

أيضاً ، وإنّ القسم الأكبر من نداءات القرآن تخاطب قلب الإنسان ، تلك النداءات التي لا طاقة لسماعها إلاّ بواسطة أذن القلب ؛ ولذلك فإنّ القرآن يؤكّد كثيراً بالمحافظة على هذه الوسيلة ، والعمل على تكاملها.نلتقي في القرآن كثيراً بأمور مثل تزكية النفس وصفاء القلب :

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) (سورة الشمس : آية : ٩).

و (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة المطففين : آية : ١٤).

وحول إنارة القلب يقول : (... إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً...) (سورة الأنفال : آية : ٢٩).

و (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا) (سورة العنكبوت : آية : ٦٩).

وفي مقابل ذلك ، فإنّ الأعمال القبيحة تسود روح الإنسان وتسلب منه الاتجاهات الطاهرة النقيّة ، وقد تكرّر هذا الحديث في القرآن.يقول عن لسان المؤمنين :

(رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا) (سورة آل عمران : آية : ٨).

وفي وصف المسيئين يقول : (كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة المطففين : آية : ١٤).

(... فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ...) (سورة الصف : آية : ٥).

ويتحدّث القرآن عن قساوة القلوب وتختمها :

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ...) (سورة البقرة :آية:٧).

و (... وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ...) (سورة الأنعام : آية : ٢٥).

و (.... كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) (سورة الأعراف : آية : ١٠١).

و (... فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (سورة الحديد : آية : ١٦).

كلّ هذه التأكيدات تُبيّن أنّ القرآن يريد جوّاً روحيّاً ، ومعنويةً عالية للإنسان. ويوجب على كلّ فرد أنْ يحافظ على سلامة ونقاء هذا الجو.

وبالإضافة إلى ذلك ، ففي الجوّ الاجتماعي المريض ، وحيث تصبح أكثر جهود الإنسان لنظافة البيئة عقيمة غير موفّقة ، يؤكّد القرآن أنْ يستغل البشر كلَّ طاقاته في سبيل تصفية وتزكية بيئته الاجتماعيّة.

يصرّح القرآن بأنّ ذلك الإيمان والعشق والمعرفة ، والتوجهات السامية ، وتأثيرات القرآن ، وقبول نصائحه ، كلّ ذلك يرتبط بابتعاد الإنسان والمجتمع الإنساني عن الدنيا ، والرذائل ، والأهواء النفسيّة ، والشهوات.

يشير التأريخ البشري أنّ القوى الحاكمة عندما أرادت السيطرة على مجتمع ما واستثماره ، تسعى لإفساد روح المجتمع ؛ ولهذا الغرض تُهيّئ وسائل الشهوة للناس ، وتحرّضهم على الشهوات.

والنموذج الذي يدعو إلى الاعتبار من هذا الأسلوب القذر ، الفاجعة التي حدثتْ للمسلمين في إسبانيا المسلمة ، التي كانت تُعدّ من مواطن النهضة ، ومن أكثر الدول الأوروبيّة حضارة وتقدّماً.

ولأجل إخراج إسبانيا من أيدي المسلمين ، بدأ

وهكـذا اسـتطاعوا القضـاء علـى عزيمـة المسـلمين ، وقـوّتهم ، وإرادتهـم ، وشـجاعتهم ، وإيمـانهم ، وصـفاء نفوسـهم ، وبـدّلوهم إلى أشـخاص أذلاّء ضـعفاء فاسـدين ، يتبعـون الشـهوات ويشـربون الخمور ويرتكبون الفواحش والمنكرات.وواضح جدّاً أنّ التغلّب على مثل هؤلاء الأشخاص لم يكن أمراً صعباً.

لقد انتقم المسيحيّون من حكومة المسلمين التي مضى عليها (٣٠٠ - ٤٠٠ عاماً) ، انتقاماً يخجل التاريخ من تذكّره وتذكّر تلك الجرائم.

أولئـك المسيحيّون الـذين يسـلمون الطرف الأيسـر مـن وجـوههم إلى مَـن لَطَـمَ علـى يمينهـا - حسب تعاليم السيّد المسيح - ، أجروا بحراً من دماء المسلمين في الأندلس ،

وبيّضوا - بذلك - **وجه جنكيز (المغولي)** ، وطبيعي أنّ فشل المسلمين كان نتيجة هممهم المنحطّة وفساد نفوسهم ، وجزاء عدم اتّباعهم للقرآن وتعاليمه.

وفي زماننا أيضاً ، أينما وضع الاستعمار رجله ، يستند على ذلك الموضوع الذي حذّر منه القرآن ، أي أنّه يسعى ليُفسد القلوب ، فإذا فسد القلب لا يستطيع العقل أنْ يعمل شيئاً ، بل تصبح نفسه قيداً أكبر في أيدي وأرجل الإنسان.

ولذلك نرى أنّ المستعمرين والمستثمرين لا يخشون من افتتاح المدارس والجامعات ، بل ويقْدِمون بأنفسهم على تأسيسها ، ولكنّهم يسعون من طرف آخر لإفساد قلوب ونفوس الطلاّب والتلاميذ بكلّ طاقاتهم.

إنّهم يدركون تماماً هذه الحقيقة ، وهي أنّ المريض في قلبه وروحه لا يستطيع أنْ يعمل شيئاً ، ويتقبّل كلّ ذلّة ، واستثمار ، وإساءة.

يهتمّ القرآن كثيراً بنقاء وعلوّ روح المجتمع ، حيث يقول في الآية الشريفة : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ

وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...) (سورة المائدة : آية : ٢).

ابحثوا أوّلاً : عن كلّ عمل خير ، وابتعدوا عن كلّ سوء ورذالة.

وثانياً : اعملوا معاً وبصورة اجتماعيّة ولا تعملوا منفردين.

وبالنسبة إلى القلب ، اذكر بعض النقاط على لسان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام ؛ ليكون ختاماً حسناً لهذا الموضوع :

مكتوب في كتب السيرة أنّ شخصاً حضر عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال : إنّ لي أسئلة أريد أنْ أعرضها عليكم.

فسأله الرسول : هل تريد أنْ تسمع أجوبة أَمْ ترغب في طرح الأسئلة فقط.فأجاب : إنّه يريد الجواب.

فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم **- ما معناه - :** جئتُ تسأل عن البرّ والإحسان والإثم والعدوان ؟

أجاب : نعم.

فجمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثة من أصابعه ووضعها على صدر الرجل براحة قائلا : (اسْتَفْتِ قلبَكَ ، وإنْ أفتاك المفتون).

ثمّ أضاف - ما معناه - : **(لقد خُلق القلب بحيث**

يرتبط مع الحسنات ويرتاح معها ، ولكنّه يضطرب وينزجر من السيّئات والقبائح ، تماماً مثل بدن الإنسان ، فإذا ورده شيء لا يتجانس معه ، يُغَيِّر نظامه ، وهكذا روح الإنسان تتعرّض للاختلال والاضطراب بواسطة الأعمال السيّئة).

إنّ ما يسمّى عندنا بعذاب الضمير ناشئ عن عدم تجانس الروح مع المفاسد والسيّئات والآثام.

يشير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى هذه النقطة ، وهي أنّ الإنسان الذي يبحث عن الحقيقة ويخلص نفسه لمعرفة الحقيقة ، لا يمكن لقلبه - في هذه الحالة - أنْ يخونه ، وسوف يهديه إلى مسير الهداية المستقيم.

والإنسان - أساساً - يبحث صادقاً عن الحق والحقيقة الخالصة المحضة.

يرد الرسول على مَن سأله عن البر : (استفت قلبك) ، أي أنّك لو كنتَ تريد البر حقيقة ، فإنّ ما يطمئنّ قلبُك به ويسكن ضميرُك له هو البر ، ولكن إذا كنتَ ترغب شيئاً غير أنّ قلبك لم يطمئن له ، فتيقّن أنّه هو الإثم.

وفي مكان آخر يسأل الرسول ﷺ عن معنى الإيمان ؟

فيجيب (ما معناه) : **(المؤمن هو الذي إذا ارتكب عملاً سيّئاً تعرّض للندم وعدم الراحة ، وإذا ارتكب عملاً صالحاً سرّ وفرح).**

عن عبد الله بن القاسم عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال : (إذا تخلّى المؤمن من الدنيا ، سما ووجد حلاوة حبّ الله ، وكان عند أهل الدنيا كأنّه قد خولط ، وإنّما خالط القوم حلاوة حب الله ، فلم يشتغلوا بغيره) ، أي إنّ المؤمن إذا زهد في الدنيا ، يسمو ويرتفع ويحسّ حلاوة محبّة الله ، ويتصوّر أهل الدنيا أنّه قد جُنّ ، في حين أنّ حلاوة حبّ الله جعلتْه في غنى عنهم ، وشغله حبُّ الله عن غيره.

قال (الراوي) وسمعتُه (الإمام الصادق) يقول :

(إنّ القلب إذا صفا ضاقتْ به الأرض حتّى يسمو) (أصول الكافي : ٢/١٣٠)

عن إسحاق بن عمّار قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : (إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلّى بالناس الصبح ، فنظر إلى شابٍ في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه مصفرّاً لونه ، قد نَحُفَ جسمه وغارتْ عيناه في رأسه.

فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :كيف أصبحتَ يا فلان ؟

قال : أصبحتُ يا رسول الله موقناً.

فعجب رسول الله من قوله وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ لكلّ يقين حقيقة ، فما حقيقة يقينك.

فقال : إنّ يقيني يا رسول الله ، هو الذي أحزنني وأسهر ليلي ، وأظمأ هواجري ، فعزفتْ نفسي عن الدنيا وما فيها ، حتّى كأنّي أنظر إلى عرش ربّي وقد نُصِبَ للحساب ، وحُشِرَ الخلائق لذلك وأنا فيهم ، وكأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتنعّمون في الجنّة ويتعارفون ، على الأرائك متّكئون ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار وهم فيها

معذّبون مصطرخون ، وكأنّي الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأصحابه : (هذا عبد نوّر الله قلبَه بالإيمان) ، ثمّ قال له : (إلزَم ما أنت عليه).

فقال الشاب : ادع الله لي يا رسول الله أنْ أُرزق الشهادة معك ، فدعا له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم يلبث أنْ خرج في بعض غزوات النبي ، فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر) (أصول الكافي - كتاب الإيمان والكفر - : ٥٣/٢).

يقول القرآن بأنّ صفاء القلب يوصِل الإنسان إلى مقام يقول عنه أمير المؤمنين عليه السلام : (لو كُشِفَ لي الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيْنَا).

إنّ القرآن بتعاليمه يريد أنْ يُربّي أناساً مسلّحين بسلاح العلم والعقل ، ويستفيدون من سلاح القلب أيضاً ، ويستخدمون هذَين السلاحين في أحسن أساليبه وأسمى كيفيّاته في طريق الحق.وإنّ أئمّتنا وتلامذتهم الصالحين المؤمنين نماذج حيّة واضحة لهؤلاء الأناس.

الفهرس

التعرف على القرآن الشهيد مرتضى المطهري ١
الفصل الأوّل.. ٣
ضرورة معرفة القرآن ٤
أقسام معرفة القرآن أوّلاً: المعرفة الإسناديّة أو الانتسابيّة:................................ ٧
ثانياً : المعرفة التحليليّة:.. ١٤
ثالثاً : المعرفة الجذريّة : ١٦
أصالة ثلاثيّات المعرفة في القرآن * الأصالة الأولى هي أصالة الانتساب :............. ١٨
* الأصالة الثانية ، أصالة المواضيع : * الأصالة الثالثة هي أصالة القرآن الإلهيّة :١٩
شروط التعرّف على القرآن * أحد الشروط الضروريّة لمعرفة القرآن : معرفة اللغة العربيّة :
* الشرط الآخر : هو الإلمام بتاريخ الإسلام :............................ ٢٠
* الشرط الثالث : ٢١
هل يمكن معرفة القرآن ٢٦
الفصل الثاني ٣٦
المعرفة التحليليّة للقرآن * يجب أنْ نلاحظ تعريف القرآن لذات الله : ٣٧
* الموضوع الآخر والمعروض في القرآن هو موضوع العالَم.يجب أنْ نلاحظ نظرة القرآن حول العالم : * ومن المسائل العامّة الواردة في القرآن ، مسألة الإنسان ، يجب علينا أنْ نحلّل رأي القرآن بالنسبة للإنسان : * المسألة الأخرى هي مسألة المجتمع البشري : * وبهذه المناسبة ، يأتي الحديث عن التأريخ : ٣٨
* وهناك مواضيع كثيرة جدّاً وردتْ في القرآن ، نُشير إلى بعض منها بإيجاز ، من ضمن هذه المواضيع : * وبالطبع ، فإنّ لكلّ هذه البحوث الكلّيّة شعب وفروع (مختلفة) ، فمثلاً : كيف يعرّف القرآن نفسه ؟ * إنّ أوّل ٣٩

* نقطة يُصرّح بها القرآن - لدى التعريف عن نفسه - : * والتوضيح الآخر الذي يعرضه القرآن في تعريف نفسه : ٤٠
التعرّف على لغة القرآن.. ٤٢
المخاطبون في القرآن ٥٥
الفصل الثالث.. ٦٠
فطرة القرآن عن العقل.. ٦١
دلائل حجِّيَّة العقل ١ - الدعوة إلى التعقّل من قِبل القرآن : * وعلى سبيل المثال أذكر نموذجاً لإحدى التعابير العجيبة للقرآن ، يقول القرآن : ٦٢
* وفي آية أخرى ، يبحث ضمن عرض مسألة.............................. ٦٣
توحيديّة ، حول (التوحيد الأفعالي والتوحيد الفاعلي) ، بقوله : * وهناك آيات كثيرة أخرى يصادق القرآن على حجِّيَّة العقل فيها بالدلالة الالتزاميّة - إذا دلّ وجود أمر على أمر آخر ، تُطلق عليه اسم الدلالة - وللدلالة أنواع : ٦٤
٢ - الاستفادة من نظام العلّة والمعلول :.. ٦٥
٣ - فلسفة الأحكام : ٦٨
٤ - النضال مع انحرافات العقل :... ٦٩
مواطن الخطأ من وِجهة نظر القرآن * من مواطن الخطأ التي يذكرها القرآن :.......... ٧٣
نظرة القرآن عن القلب ٧٨
تعريف القلب ٧٩
خصائص القلب... ٨١
الفهرس ٩٢